الابـــــن

جورج سيمنون

- Author : Georges Simenon
- Title: The Son
- Translated by: Hassan Mohamed Ahmed
- Afaq's first edition: 2019
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: جورج سيمنون
- العنوان: الابن
- ترجمة: حسن محمد أحمد
- طبعة آفاق الأولى 2019
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ١٧٧٨٢
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 180 - 6

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

جورج سيمنون

الابـــن

رواية

ترجمة

الرائد / حسن محمد أحمد

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

سيمنون، جورج.

جورج سيمنون : الابن - ترجمة: حسن محمد أحمد

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

200 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17782 / 2018

الترقيم الدولي 6 - 180 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - سيمنون، جورج

الفصل الأول

«ولدي»

هل يا ترى ستتبسم حين تقرأ هذه الكلمة وتشعر بمدى حيرتي واضطرابي وأنا أكتبها لك؟ فمنذ سنوات طويلة لم أُسطِّر لك حرفًا، أظنه منذ كنت طفلًا ترحل بعيدًا عني في رفقة والدتك في عطلاتك الدراسية وتضطرني أعمالي للبقاء في مكتبي، وكنت أخصك وقت ذاك بسطر أو سطرين أبدؤهما عادة بكلمة «بني» وأحيانًا «طفلي» أو فتاي الصغير، ولكني أرى أن كلمة «ولدي» تحمل في معناها وبين ثناياها كل الحب والقوة والإعزاز، ومع ذلك فهي تبعث في نفسي إحساسًا من الكآبة والحزن، وكأني أكتب وصيتي!

ومهما كان الأمر، فلا مفر لي من أن أبدأ رسالتي بطريقة ما، وإني لأشعر الآن بمثل ما كنت أشعر به حين كنت أدخل عليك غرفتك، فألقاك غارقًا بين كراساتك وكتبك، فأقف مترددًا لحظات متهيبًا كأني في محراب، ثم أجلس على طرف فراشك، وفي النهاية أتشاغل بإشعال إحدى سجائري.

ولعل أكثر ما يضايقني أني لا أعلم -يقينًا- متى ستقرأ خطابي هذا، أو ما عساك تشعر به وقتئذ، ولا أخفي عنك أني طالما فكرت في بادئ الحال في أن أتحدث إليك بنفسي، ولذلك كنت أحضر إلى غرفتك في الفترة ما بين عشائك وأوبتك لفراشك، ولكن صدقني يا ولدي، كانت الكلمات تحتبس في حلقي، فأظل جالسًا على حرف سريرك أتأملك بقلبي قبل عيني، وأنت مكبٌّ على كتابك، معللًا نفسي بالصبر حتى ترفع رأسك وتلتفت نحوي قليلًا وأنت تغمغم في شرود: «إيه! وكيف الأحوال؟».

لم يكن بيننا الكثير مما يقال، وفي الواقع لم نكن نشعر بحاجة لتبادل أي حديث، ولا أعلم هل كان سبب ذلك تحفظ كلينا في علاقته بالآخر، أم بعده عنه بقلبه وأفكاره؟

وعلى أي حال فلا شك أن الكتابة إليك أيسر شأنًا من الحديث معك؛ ففي وسعك أن تعيد القراءة مرات ومرات، فتكشف في كل مرة آفاقًا جديدة تساعدك على العثور على إجابات لتلك الأحاجي التي كانت تحيرك من حين لآخر، وإن كانت لا تزال كلها أو بعضها على الأقل تسبب لي كثيرًا من الآلام والقلق والأحلام المزعجة!

حاولت- كما ذكرت لك- مفاتحتك بالحديث، وبالتحديد منذ الثالث والعشرين من أكتوبر صبيحة يوم دفن والدي.. بل إنني لا أزال أذكر تلك اللحظة التي اتخذت فيها قراري المذكور.

كان ذلك في كنيسة «لوفيسينيه» حين كنا نقف جنبًا إلى جنب في الصف الأمامي على يمين التابوت الكبير، وصوت الأرغن يداعب

أوتار القلوب ويشنف الأسماع، ووالدتك تقف مع شقيقتي أمام الهيكل، وباقي السيدات ينتظرن في الخارج مع عمك «بيير فاشيه».

ولم يكن عدد شهود الصلاة كبيرًا: القس، وغلامان يرددان الأناشيد، ثم ضارب المغرق، ونحو ثلاثين شخصًا تركت أقدامهم الموحلة آثارًا فوق الأرض الرخامية الناصعة البياض، حيث كانت السماء تمطر مدرارًا منذ الصباح، وكنا قد مشينا خلف الجثمان من البيت حتى الكنيسة.

في تلك اللحظة فقط، اكتشفتُ فجأة أنك أطول مني وأرشق قوامًا في معطفك الأسود الجديد الأنيق وشعرك المرسل الطويل، الذي تعتقد أمك أنه أطول مما يجب، ووجهك النحيل وقد رفعتَه شامخًا بأنفك في تحدٍّ للناس أجمعين، ومن عينيك المثبتتين للأمام، كانت تنبعث نظرات قوية.

تُرى كم مرة في حياتك دخلت فيها بيتًا من بيوت الله؟ وهل تشعر في نفسك برهبة حينما تشهد تلك الطقوس الدينية التي تجري أمامك؟

لقد وقفنا معًا في ذلك المكان المقدس في مرة سابقة تشابه مثل هذا الظروف تمامًا، ولكن قبلها ببضعة شهور وفي الثالث والعشرين من يناير الماضي «اليوم نفسه من الشهر، أليس هذا عجيبًا؟» وكان ذلك بمناسبة وفاة أمي -جدتك- وزوجة الرجل الذي يرقد الآن في الصندوق تحت الغطاء الأسود ذي الصليب الفضي.

ولم أكن -حينما وارينا جثمان جدتك بالثرى- قد ألقيت إليك انتباهًا، إذ كنت أظنك مجرد طفل -برغم تجاوزك عامك السادس

عشر، ولكني وقد رمقتك بطرف عيني الآن شعرت بأن مَن كان يقف بجانبي رجل رشيد ذكي القلب، دقيق الملاحظة يسجل كل شيء في ذاكرته.

وحين كنت تأتي معي إلى قصر «ماجالي» كانت تنقل بصرك في أرجائه دون أن تنبس بحرفٍ، ذلك القصر العتيق الذي عاش فيه أبواي. والذي لن يسكنه أحد من بعدهما، ولن تعود لنا به صلة بعد الآن، كنت ألمحك وكأنك ترسم في ذاكرتك أدق التفصيلات.

وقد استمعت خلال الأيام القليلة الماضية إلى ما كان يدور من الحوار والنقاش العائلي في أمور الجنازة دون أن تفتح فاك بكلمة وقد ارتسم الضيق والملل على محياك وبك رغبة ملحة في أن تنتهي من ذلك الأمر المكروه سريعًا.

كذلك كنتُ أتأملك طوال الشهور الماضية حين كنت أدعوك أيام الآحاد لمرافقتي في زيارة قصيرة لجدك، حيث تمضي معه بضع لحظات قد تشيع في نفسه الرضى والسرور، فكنت أقرأ في ملامحك معاني الرفض والضيق، ثم في النهاية كنتَ تأتي معي بغير حماس أو رغبة صادقة.

أنا لا ألومك مطلقًا يا بنيَّ، وأظنني أفهم شعورك.

ولكن ثمة حقائق كثيرة أود أن تعرفها لمصلحتك ومصلحتي، كذلك لمصلحته هو، ذلك الرجل الذي يرقد في الصندوق والذي شيعناه منذ قليل ومعك عمك «فاشيه» حتى المقابر.

وليس مجرد الشعور بالحرج هو الذي منعني من أن أصارحك بها شفاهًا بنفسي، فقد رأيت أن الحكمة تقتضي أن أتريث بعض الوقت قبل أن أفاجئك بها، -ولا أدري متى يطول انتظارك وانتظاري!-، ومن ثم رأيت أن الأفضل أن أكتب كل ما في قلبي بين هذه السطور، وستبقى مكانها حتى تقرأها وقد أصبحت زوجًا وأبًا تتخذ بنفسك قراراتك دون أي تدخل أو تأثير، متحملًا كل التبعات والمسؤوليات.

إذن، فمن الجائز أن يقرأ جان بول -ابن السادسة عشرة هذه الكلمات، كذلك من المحتمل جدًّا أن يقرأها نفس الشخص وقد غدا رجلًا جليل المكانة، وخط الشيب شَعره، مهيب الطلعة في الثلاثين أو الأربعين من عمره، أو ربما في مثل سني، ازداد بالحياة خبرة، وبتصرفات الزمن علمًا، سأتركها لك لتقرأها بعد وفاتي، ولا أظن أنك ستنتظر طويلًا، فلن أبلغ أبدًا ما وصلت إليه أمي العجوز التي عاشت إحدى وثمانين سنة، أو أبي الذي مكث حتى السابعة والسبعين.

لا تبتئس، فأنا لا أحاول استدرار عاطفتك، فالموت حق، ونحن آل فرنسوا لا نخشاه أبدًا، بل على النقيض؛ إنني أبتسم حينما أتخيلك في مثل عمري، تتحمل الهموم وتفكر في ابنك الذي سيرث اسمك، وفيما عساك أن تحكم به على أبيك وجدك.

* * *

ولا تدهش إذا بدأت حديثي معك عن الحاضر، قبل أن أغوص بك في أعماق الماضي وهو لب الموضوع، فإذا كنت تسأم ذلك لأن هذا الحاضر هو الذي تعيش فيه، وتعتقد -كما أعتقد أنا- أنك تعرفه

كما تعرف ما في راحة يدك، فإنه سوف يلقي شعاعًا من نور على ذلك القديم، فيجعلك أصدق حكمًا وأصوب فهمًا.

* * *

إن عائلتك لتتألف اليوم منك، ووالدتك، وشقيقتي «آرليت» وزوجها «فاشيه»، وقبل شهور ستة كان هناك أيضًا جدتك وجدك، وأكبر الظن أن كلًّا منهما قد ترك في نفسك أثرًا يختلف عن الآخرين، وكان بودي أن أعرف رأيك في كل فرد منا: في جدك، في أمك، أو فيَّ أنا شخصيًّا، وأي فكرة يا ترى قد كونتها عني كما تراني ويراني الناس.. ثم بعد أن أقص عليك وقائع هذه القصة؟

ولقد كانت أسرتي أقل من أسرتك عددًا، لم تزد على أبي وأمي وشقيقتي، ثم بعض الأقارب منهم أحياء انقطعت صلاتهم بنا، أو أموات تحت الثرى في الرموس!

ولست أدري تمامًا متى اكتشفت حقيقتي في تلك المجموعة، فإذا بي لست إلَّا قطعة من محرك ضخم يدور باستمرار على مر الأجيال والسنين، وغصنًا رفيعًا في شجرة ضخمة تمتد جذورها في الأعماق ثابتة راسخة، تذوي غصونها بتغير الفصول، ولا تلبث حتى تنبت لها براعم جديدة تأخذ دورها الجديد في الحياة! وهكذا يخلف الأبناء الآباء والأجداد وتبقى الأسرة العريقة على مر الزمان، ولا جديد تحت الشمس إلَّا الأسماء والوجوه، وهكذا أيضًا كان جدك، وقبله أبوه، ثم أنا وأنت، وأبناؤك من بعدك الذين سينجبون لك حفدة، والمحرك الضخم يدور ما دارت الدنيا حول نفسها!

والآباء لا يعيشون إلَّا من أجل أبنائهم.

وأعتقد أن عينيَّ تفتحتا على تلك الحقيقة وأنا في العشرين من عمري، في وقت يعاصر تلك الأحداث الهامة التي سوف أرويها لك فيما بعد.

ولعلك قد أنصتَّ مذهولًا لتلك المناقشة الحادة التي دارت بيني وبين «فاشيه» زوج عمتك ليلة وفاة جدك، وكنت أرمقك في انتباه لأعرف صدى ذلك في نفسك، وفي أي جانب منا تقف؟ ولكنك اكتفيت بالصمت.

فقد كان جدك –ومنذ بداية هذا القرن– مُنْكِرًا لكل دين سماوي، وكل الناس يعرفون عنه ذلك. مكتفيًا بالانتماء إلى أحد المحافل الماسونية، ولذلك لم أرَ كاهنًا أو قسًّا يدخل دارنا قط، ولم أتلقَّ في طفولتي أو صباي حرفًا من أي كتاب مقدس، وما وطئت قدماي عتبة أي معبد أو كنيسة، وكذلك نشأتَ أنت، وفي الوقت نفسه لا أذكر أنني سمعت قط أحدًا في بيتنا يتحدث أو يتناقش في الدين، أو يهاجم أحدًا في معتقداته.

وكانت جدتك كذلك أيضًا حتى قبل العام الأخير من وفاتها. إذ فوجئنا جميعًا وقد أصبحت كاثوليكية متعصبة، وأوصت في إلحافٍ شديد أن تقام لجثمانها بعد وفاتها طقوس دينية كاملة.

ولم تكن أنت موجودًا لترى غضبة «فاشيه» الكبرى، حينما لاحظ أنهم يعدون إحدى غرف القصر في «لوفيسينيه» ليبيت فيها جثمان جدتك بين الصلبان والشموع، إذ لم يكن في البيت غرف معدة لذلك،

فثارت ثورته لما شاهد أمي راقدة مغمضة العينين ملثمة الفكين تطبق أصابعها المتخشبة على المسبحة وفوق صدرها الصليب، فصاح محتجًا رافعًا يده في وجه أبي مهددًا:

- أو سمحتَ للقس بأن يطأ عتبة هذا البيت؟

ولقد ارتج على جدك، وامتقع لونه وهو الذي كان برغم بلوغه السابعة والسبعين لا يزال مشدود القامة مرفوع الرأس.. ارتج عليه ولم يجد جوابًا.

فنظر نحوي في حيرة كأنه يستلهم المعونة، فواجهت «فاشيه»، وأجبته في حزم:

- هذا ما أوصت به أمي قبل وفاتها، ولا بد لأبي أن يحقق لها رغبتها الأخيرة!

وزأر «فاشيه» كالأسد الجزع:

- ألَّا يدرك هو أنه بذلك التصرف يجعلنا أضحوكة بين الناس؟

«ولم يكن هو إلَّا أبي».

وكان «فاشيه» لا يزال هو ذلك الشاب الأصفر النحيل الذي خطب شقيقتي في أحد الأيام، لم يتغير شيء في شكله أو وزنه درهمًا واحدًا برغم مرور الشهور والأعوام، وكان في ذلك الوقت رئيسًا للكتبة في مقاطعة «شارنتي» التي كان جدك حاكمًا عامًّا لها، بيد أني سأعود إليك مرة أخرى.. أما الآن فهو من الأعلام المشهورين ممَّن يشار إليهم بالبنان، ويحتل مركزًا رفيعًا أكسبه ثقة في النفس وعنادًا

في الطبع، ربما وصل إلى حد القحة! يكاد مَن ينظر إليه وهو يتحدث بتلك اللهجة ليلة وفاة أمي يظن أن أسرتنا لا تتكون إلَّا منه فقط، وكأنه صاحب الحق وحده في التحدث بلسانها والتصرف في شؤونها، وأنه المسؤول عن الحفاظ على كرامتها وهيبتها!

- «أما كفاكم ما فعلتم -كلكم- للإساءة إلى سمعتي واسمي؟».

ولقد كرر -بعد ذلك بستة شهور- تلك العبارة أمامك، فقطبتَ جبينك دهشة، مما جعلني مضطرًّا لأن أذكر ما حدث في المرة الأولى، ولا بد أنك فكرت طويلًا في معناها، ما لم يكن هو أو شقيقتي «آرليت» أو هما معًا قد ذكرا لك شيئًا دون علمي.

ولم يتمكن برغم عناده، من الحيلولة دون حضور شقيقتي للصلاة على جثمان أمها في الكنيسة، لكنه ظل جالسًا في سيارته في الخارج وأمام الناس على قارعة الطريق!

ولقد تكرر ذلك المشهد بعد وفاة أبي، ولكني تحملتُ وحدي المسؤولية كاملة، رغم أن أبي لم يطلب مني قط أن تقام له جنازة دينية، فلم يحدث بيننا خلال تلك الشهور القليلة أو طوال حياتي أي حديث في الدين أو الفلسفة السياسية.

كان يعيش في الفترة من يناير حتى أكتوبر وحيدًا في (لوفيسينيه)، تقوم على خدمته عجوز تحضر في الصباح لتعد له طعامه وفراشه، ثم تنصرف إلى بيتها وزوجها كل مساء.

أتراك تدرك معنى الفراغ والوحدة لرجل مسن في بيت كبير متعدد

الحجرات، وكان في وقت ما يشغل منصبًا خطيرًا ترمقه الأبصار وتنحني له الهامات وترمقه الأعين في إجلال واحترام؟

ولعلك لم تتأثر بوفاة ذلك الرجل كما لم تتأثر بوفاة زوجته في أثناء اشتغالك بامتحان الشهادة الثانوية؛ لأنك كنت قليل الاختلاط بهما، والزيارات النادرة التي كنت تصحبني فيها لرؤية جدك الشيخ كانت تسبب لك صداعًا ومللًا؛ فالقصر في ذاته لم يعد يلائم جيلك الحاضر، والذكريات التي اعتدتُ أن أجعلها موضوع حديثي مع جدك في حضورك لم تكن تثيرك أو تهمك، ثم إنه قلما كان يوجه إليك خطابًا، وربما تعجبتَ من ذلك وساءك ألَّا يعيرك انتباهًا، لكنه كان يختلس النظر إليك بطرف عينه، ثم ينظر نحوي، فهل خطر ببالك ماذا كان يعنيه بتلك النظرات؟

ومع ذلك فقد كان من واجبي أن أجعله يراك، وكنت أعلم أنه يشعر بالسرور العميق لذلك، وبعد فترة كنت أنظر في ساعتي وأقول لك مموهًا:

- أما قلت إنك ستقابل بعض أصدقائك في الخامسة؟

ولم أكن أعرف شيئًا عن أصدقائك أو مواعيدك -وليس ذلك عتابًا-، فكنت تقف خجلًا مستأذنًا في الانصراف وتمد يدك في ارتباك قائلًا:

- إلى اللقاء يا جدي.

وكان يجيبك كما اعتاد أن يجيبني، وكما أفعل معك الآن:

- إلى اللقاء يا ولدي.

والقبلات لا تعرفها أسرة لافرنسوا، حتى في طفولتي كنت أطبع كارهًا شبح قبلة على خد أبي وأمي، ثم أنصرف مستاء.

وكنا نرقبك وأنت تنصرف، ولعلك توهمت أني أعجل في انصرافك لتخلي لي المكان لنتبادل حديثًا لا تحب أن تسمعه، ولكنك تخطئ في ذلك، فالذي كان يحدث بيني وبين أبي هو الشيء الذي يحدث بيننا حين أدخل غرفتك وأجلس على طرف فراشك مفكرًا. هكذا اعتدنا أن نجلس معًا بين الظلال وكل منا غارق في أفكاره، وحين نتعب من طول الصمت يقطعه أحدنا، فيتحدث عن كتاب أو حادث ما أو عن شخص يعرفه كلانا أو عن الدواء الذي كان أبي - خلال شهوره الأخيرة- يتناول منه أنواعًا كثيرة.

بيد أننا لم نتحدث عن جدتك، أو عن «لاروشيل»، أو من أقام فيها من الناس، أو ما وقع من الحوادث في عام ١٩٢٨.

ولعلك تظن أن حينًا من الدهر قد انقضى منذ ذلك الوقت، فأنت نفسك لم تظهر في الوجود إلَّا عام ١٩٤٠، وهو عام من المؤكد أنه قسم التاريخ قسمين.

ولكن يخيل إليَّ أن تلك السنة قد انتهت بالأمس فقط، فالسنوات تمضي سراعًا، حتى لأرتاب في أني حقيقةً قد بلغت الثامنة والأربعين من عمري، وفي أن من واجبي -سواء رضيت أو أبيت- أن أبذل التضحيات التي بذلها أبي نحوي.

وبعد فمَن يدري؟ ربما شاءت المقادير أيضًا أن أشهد نهايتي في ذلك القصر القديم في «لوفيسينيه» لولا إصرار شقيقتي وزوجها -لافتقارهما الدائم للمال- على بيعه.

لا تنزعج فأنا أحدس ما يدور ببالك، ولست حزينًا على فقده، بل ما أردتُ أن أشير إليه إنما هو كناية عن رغبتي في أن أقول لك: ربما اضطررت يا ولدي يومًا ما إلى أن تجذب ابنك الصغير من يده ليزور أباك المتقاعد الذي اشتد به الهرم وهو كاره لزيارتي!

ابتسم أيها الصغير، وأقسم لك أن حديثي إليك لن يكون بعدئذ كئيبًا أو حزينًا!

ولكن ينبغي أولًا أن أنتهى من موضوع الوفاة والجناز، ولست أجد تفسيرًا لما يعتمل في نفسي من القلق بخصوصها، حقًّا كان أبي ينكر الأديان جميعها، انحدر من أسرة عريقة ريفية، وأدى للدولة خدمات جليلة، فهل كان من البنائين الأحرار؟ لست واثقًا من ذلك. ولولا عمك «فاشيه» ما خطر ببالي شيء من ذلك، فقد أشار لي مؤكدًا أنه كان يشغل مركزًا هامًّا في الطائفة الماسونية، وأن المحفل قد ساعده عام ١٩٢٨ وخفف من هول المصيبة التي وقعت آن ذاك.

وأعود فأكرر أنه لم يصارحني حتى وفاته بأي رغبة أخيرة يطلب مني تحقيقها.

وإذا كنتُ قد أدخلتُ جثمانه إلى الكنيسة؛ فذلك لأني توهمت أنه كان يتمنى ذلك ويرغب فيه من صميم قلبه، وإن لم يظهره على لسانه. أما إن كنت مخطئًا في ظني، فأنا ألتمس منه الصفح والمعذرة.

هذا عن جدك. أما عن جدتك؛ فلا أجد في نفسي الشجاعة لأسألك عما تذكره في طفولتك عنها، ولم يقع بصرك عليها إلَّا وهي جثة بطيئة الحركة متورمة الجسم، هدها مرض الاستسقاء، وملأ ساقيها بالماء، وفي عينيها نظرة غريبة بلهاء!

لم تأتِ لرؤيتك عند ولادتك، فقد كانت تلازم البيت لمرضها، فحملناك إليها بعد شهر من ولادتك حتى تراك.. وكان في يوم أحد من إبريل، طقسه جميل رائع وشمسه دافئة ساطعة، وكنتُ قد وصلتُ ومعي أمك توًّا من «باريس»، فهبطنا المحطة الجميلة واخترقنا حديقة قصر «ماجالي» اليانعة الزهور والتي تصدح فيها الطيور، ولكنا ما كدنا ندلف إلى الداخل، داخل تلك الغرفة الكئيبة المظلمة ذات السقف المنخفض، والتي اعتاد أبواي الجلوس فيها بجوار المدفأة العتيقة التي تتصاعد رائحة دخانها فيزهق الأنفاس، حتى شعرنا بأننا تركنا الحياة وراءنا في الحديقة، وأننا نطأ عتبة عالم آخر! مقبرة عفنة يخيم عليها شبح الموت الرهيب!

وقال أبي مخاطبًا أمي التي كانت تجلس في مقعد كبير ذي ذراعين:

– هذا هو حفيدك جان بول!

فنظرت نحوي تحدجني بعينين جامدتين، ولم يشرق وجهها حتى بشبح ابتسامة! ومدت ذراعيها في صمت، وفي تلك اللحظة لمحت الفزع والتردد واضحًا على أمك التي نظرت نحوي مستفسرة.

وأمسكتُ أنا أنفاسي خشية أن تفلت كتلة اللحم الصغيرة التي هي

أنت، من بين يديها بطيئتي الحركة بسبب إعيائها وضعفها.

ولكن أمك كانت تفكر بطريقة أخرى، لعلني كنت أشاركها فيها بنصيب، فقد خشينا أن تحل بك اللعنة يا ولدي ونحن نسلمكَ يا مَن تُمثِّل الأمل والمستقبل إلى يد الفناء والشيخوخة والهرم!

ومعذرة إذا اعترفت لك بأنه قد ضايقني حين ذاك أن أرى تلك السيدة التي كانت سبب وجودي، وأرضعتني لبن ثدييها، وحملتني بين ذراعيها.. تنحني فوق وجهك الوردي الصغير، وفوق شفتيك الجميلتين الطاهرتين اللتين لم يلمسهما إنسان حتى يلوثهما بأنفاسه الحارة!

ثم لم تُعِرْكَ بعد ذلك اهتمامًا، وعندما تعلمتَ المشي وكنت تدرج مع بعض الأطفال في الحديقة فتتعثر وتسقط. كنت تسبب لها رعبًا شديدًا كلما صرخت أو بكيت بصوت مرتفع، فقد كانت أقل الأصوات تسبب لها خوفًا وانزعاجًا.

وكان أبي يكبرها بأربعة أعوام فقط، فارق بسيط ربما لا يلحظه مَن في عمرك، ولا يلحظه أي إنسان بين رجل وزوجته بلغا هذا القدر من الشيخوخة.

ولا بد أنه من بين تلك الذكريات المحفورة في ذهنك عن «لوفيسينيه»، صورة جدتك وهي في مقعدها الكبير بجوار المدفأة، مكانها الذي لم يتغير قط، وربما عجبتَ في نفسك من أنها لا تؤدي أي عمل في الدار، حتى غزل الصوف أو التطريز الذي اعتادت كل امرأة أن تشغل نفسها به، ولم تكن تقرأ أيضًا، وليس في الدار مذياع، فكانت

تجلس ساكنة في مقعدها عيناها مشدودتان إلى الأمام، لا تنبس بأي حرف، فإذا ما سقطت إحدى الجمرات المشتعلة من المدفأة فوق السجادة لم تكلف نفسها عناء الانحناء والتقاطها!

وأذكر أن أبي كان -ذات يوم- خارج البيت في مهمة عاجلة، وكانت مدام «برين» قد انتهت من عملها وانصرفت لمنزلها، وحين عاد وجد قطعة خشب مشتعلة سقطت من المدفأة، فأحرقت دائرة متسعة من خشب الأرض، هذا وأمي جالسة ساكنة تنظر في بلاهة كأن الأمر لا يعنيها!

أتكره أن تكون مثل هذه العجوز المسكينة جدتك؟

وما قولك لو علمت أنها كانت في شبابها مثال الحيوية والنشاط، تُمضي معظم عطلاتها ونزهاتها في الحديقة التي كنتَ تلعب فيها في صباك، وقت ذاك كانت جدتك إحدى بطلات الكروكيت، تتردد ضحكاتها المرحة بين أرجاء القصر، لقد ذكرتني أنت بذلك حينما عثرت منذ أيام على مضرب صدئ من الحديد في الحديقة، وسألتني ماذا يكون؟

ولم يكن قصر «ماجالي» كما تراه الآن كئيبًا حزينًا مظلمًا، ولقد شاهدتُه بنفسي في طفولتي، كان يا ولدي أجمل بيوت «لوفيسينيه»، تتلألأ أنواره في الليل، ويقصده صفوة القوة وعظماؤهم في كل وقت، وتزخر حديقته على الدوام بالأطفال يلعبون ويتأرجحون ويمرحون!

وهكذا حينما كانت جدتك تتخذ مكانها على ذلك المقعد بجوار المدفأة وتجلس ساكنة، كانت تحلم بذلك الماضي البعيد وتنصت

في لذة واهتمام لأصوات مرح الطفولة البريء الذي تتخيله يملأ أسماعها، ولم يحاول أبي أن يوقظها من أحلامها أو يعيدها لعالم الحقيقة والواقع، مكتفيًا بأن يرعاها ويهتم بتمريضها والعناية بها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة في هدوء وطمأنينة؟

ومنذ عامين، وكان مسيو لانج الساكن في البيت المقابل لنا قد توفي وهو في المعاش منذ وقت طويل، واستأجر البيت عروسان حديثا الزواج، تشاجر معهما أبي بسبب ارتفاع صوت مذياعهما، وكانا يتركان النوافذ مفتوحة على مصاريعها.

وكم كان أبي يتعذب حينما يأتي بعض أطفال الجيرة للعب الكرة في الفضاء أمام منزلنا، فكلما صاح أحدهم -والله يعلم أنهم كانوا دائمًا يصرخون مثلما كنتَ تفعل أنت أيام الآحاد -ترتعد أمي وتنتفض فزعًا كما لو لدغها عقرب! حتى يضطر إلى أن يخرج فيتحدث مع كبيرهم. ولست أعلم -على وجه اليقين- كيف دار الحديث بين الطفل والشيخ؟ بيد أني أعتقد أن الأطفال جميعًا كرهوا أبي وأمي من تلك اللحظة، ولم يفهموا قط أن الشيخين ينشدان الهدوء، وهما يقضيان الأيام الأخيرة من حياتهما، كذلك لم يخطر ببال تلك العروس التي كانت تخطو دوامًا في الشرفات بثوبها القرمزي الحريري معجبة بشبابها وجمالها أنها ستكون في أحد الأيام مثل جدتك!

وكثيرًا ما كان الأطفال يزحفون كالهنود الحمر، ويجذبون الجرس في عنف، ثم يولون الأدبار، ضاحكين مسرورين، أو يلقون القاذورات والأوساخ في صندوق البريد المعلق على الباب!

فهل شعر بأن وجوده أصبح غير مرغوب فيه بين أبناء هذا الجيل، وأن كل ما يحدث له ليس إلَّا إشارة تنبئ بأن حياته قد أذنت بالنهاية؟

وقبل أن يشل المرض تفكير أمي ويقعدها عن الحركة، كان يقوم ببعض الأعمال القضائية في مكتبة الذي لا يبعد كثيرًا عن محطة «لوفيسينيه»، فقد كان يحمل الدكتوراه في القانون، ويجد سعادة كبيرة في العمل والسهر على القضايا برغم بلوغه تلك السن الكبيرة، ويتردد كل مساء على مقهى «كولوني». وهو مشرب من الطراز القديم، له موائد ومفارش ومرايا على الجدران على النمط الأمريكي. وهناك يجلس مع بعض رفاقه من الشيوخ ويلعب دورًا أو دورين من «البريدج»، فإذا امتد شوط اللعب قليلًا بدأ ينظر في قلق إلى ساعة الحائط، كان يعد الوقت بالثواني حتى لا يتخلف أبدًا عن العودة في السابعة تمامًا مهما كانت الظروف، ففي تلك اللحظة تنصرف مدام «برين» إلى بيتها بعد أن تعد المائدة وتضع الطعام في الفرن ليظل ساخنًا.

وكان هو الذي يقدم الطعام، ثم يغسل الصحون أيضًا، وتبقى له بعد ذلك ساعة ليقرأ فيها الصحف.

هل تشعر بالسأم حينما أحدثك بكل ذلك؟ فالأولاد في سنك يتلهفون على كل ما كان جميلًا نظيفًا صغيرًا في عمر الربيع، ويمتعضون من كل قديم تقادم عليه الزمن وأكل الدهر عليه وشرب، بل ربما تمنوا زوال ذلك القذى من أمام أعينهم!

ولكن لا تنس أن ذلك الشيخ المتهالك لم يكن غير جدك، تجري دماؤه في عروقك، وتبرز بعض ملامحه وصفاته في محياك، أبيت أو رضيت!

ولا تحسبني أقول ذلك مدافعًا عن أبي، أو لأخفف من مساوئ الشيخوخة التي تهددني أنا أيضًا عما قريب، فلسوف تزداد عمقًا في الفهم حينما أصل في قصتي إلى ما حدث في سنة ١٩٢٨ التي هي أصل كل بلاء، وسبب كل شيء سمعتَه في «لوفيسينيه» أو في بيتنا في ميدان «ماكماهون».

ومنذ خمسة أعوام -حينما ازدادت حالة أمي سوءًا- كف أبي عن الذهاب إلى مكتب المحاماة، كذلك توقف عن السهر في مقهى «كولوني»، واكتفى بأن يغيب ساعة أو بعض الساعة لشراء الحاجات من السوق، ومثلها بعد الغروب يتمشى على قدميه، حتى لا يمرض أو تتيبس مفاصله إذا كف عن الرياضة.

وظل كذلك، حتى بعد وفاة أمي، لم يغير من عاداته قط، ولم يمرض قط، بل لم يشعر طيلة حياته بحاجته إلى زيارة أي طبيب، كان دائمًا مرفوع الرأس نشيط الحركة مشدود القامة كابن العشرين، يعني بثيابه وأناقته كأنه عريس ليلة الزفاف!

وحينما سألت الطبيب في «لوفيسينيه» عن سبب وفاته -فقد وجدناه ذات مساء بمفرده منبطحًا على وجهه فوق السجادة بجانب فراشه حيث سقط-، هز الطبيب كتفيه، ونظر إليَّ مليًّا، ثم قال: «قتله الحزن»!

وكان من عادته أن يدفن الأحزان في قلبه، فلا تظهر على وجهه، ولم تدمع عيناه حينما ودع شريكة حياته، ولكنه أمسى أكثر رقة وأشد عطفًا.

ومما عجبنا له أنه تبنى هريرة صغيرة عثر عليها ضالة في الحديقة ذات صباح تموء جوعًا وترتعد بردًا فحملها في رفق واشترى لها «بزازة» صغيرة ملأها لبنًا ومضى يرضعها ويضمها إلى صدره في حب وحنان حتى اشتد عودها، وكانت هذه القطة تسليته الوحيدة حتى قضى نحبه!

بيد أن ذلك كله ربما لا يفسر سبب كراهيتي لعمك «فاشيه» أو عدم رضاي عن عمتك «آرليت» التي كانت تنتهج سياسة عدم الانحياز، إلَّا أنها كانت تؤيد زوجها في معارضته إجراء الطقوس الدينية لأبي.

أو ربما كان الفضل لزهرة الجيرانيوم في اتخاذي ذلك القرار المفاجئ نحو أبي! إنك لتعرف تلك الزهرة الرائعة التي طالما تناولناها بالحديث ونحن على مائدة الطعام، والتي كانت تبدو وحيدة فريدة في أصيصها الصغير الجميل في النافذة المواجهة لنا في ميدان «ماكماهون»، وكانت لعانس عجوز استأجرت الغرفة الخشبية العليا فوق السطح، ومع أن جميع سكان الطوابق الأخرى من الأثرياء ذوي الأسماء المعروفة، لم نكن نعرف مَن هي؟ أو من أين أتت؟ أو كيف تعيش؟ سوى ما أخبرتنا به خادمتنا «إميلي» ذات يوم من أنها تُدعى الآنسة «أوغسطين».

ولعل مما استرعى أنظارنا إلى تلك الزهرة، أنها كانت تطل وحدها على الميدان، فنوافذ الطوابق والدور جميعها خالية من الزهور، وكانت تظل في مكانها أيام الصيف ليل نهار، ولكن ما تكاد ليالي الشتاء الباردة تبشر بالقدوم، حتى تخاف عليها الصقيع وترفعها

قبيل الغروب، ثم تعود فتضعها في شمس الصباح الدافئة، وكنا نقول: «انظروا! هذه زهرة الآنسة «أوغسطين» قد عادت إلى النافذة»!

ومن تلك اللحظة شعرت بأن ثمة رابطة خفية بين زهرة «أوغسطين» وهرة أبي!

فكل مخلوق منا يشعر في وقت ما بحاجته الماسة الشديدة إلى شيء يتشبث به في شيخوخته ويؤنس وحدته، ولقد اختارت جدتي في الدين ملاذًا يؤنس وحدتها في آخر أيامها حتى القبر.

ولا أخفي عنك أنني ليلة الصلاة على الجثمان في الكنيسة قد سحرت بما شاهدته عيناي بين الظلال: المنبر والحواجز الخشبية اللامعة، وأضواء الشموع ورائحة البخور المعطر وثياب المنشدين، وصوت الترتيل الذي كان يتردد صداه تحت القباب العالية المرتفعة المزينة بالنقوش مختلطًا بنغمات الأرغن ودقات الدفوف النحاسية، حتى التماثيل التي تصور القديسين تبعث في نفسي الحائرة راحةً لم أشعر بمثلها من قبل.

وشيئًا فشيئًا اختلط كل شيء في رأسي: الهرة، وزهرة الجيرانيوم، وصوت الأرغن، ورائحة البخور، والتراتيل، ومنظر القس المهيب بعباءته الكهنوتية، وهو يغمر أصابعه من الماء المقدس.

واختلستُ نظرة إلى أبي في تلك اللحظة، فوجدته مطرقًا برأسه في خشوع، وكأنه يريد أن يخفي عن الناس دمعة وحيدة تترقرق في مقلتيه، أو ربما خُيِّل إليَّ ذلك!

الفصل الثاني

قرأتُ ذات يوم عبارة في كتاب ما، راقتني ونفذت إلى قلبي، ولست أذكر تمامًا هل كان ذلك في قصة قصيرة أم رواية كبيرة، برغم أني لستُ مولعًا بقراءة الكثير من ذلك النوع من الأدب؟ وكانت بقدر ما تعيها ذاكرتي «إن أهم لحظة في حياة الإنسان هي التي يموت فيها أبوه!».

وأستطيع أن أراهن مَن يشاء بأي شيء دون أن أكون مجازفًا على أن هذا الكاتب رجل في مثل سني أو أكبر قليلًا، فالناس المتقاربون في الأعمار يعرف بعضهم بعضًا من أفكارهم المشتركة، ولا أخفي عنك أني تدبرت طويلًا فيما تعنيه تلك العبارة حتى وضح لي بجلاء: لماذا كانت وفاة رب الأسرة حدثًا جليلًا بالنسبة لحياة الابن؟ ذلك لأنه يجد نفسه وقد أضحى بين عشية وضحاها رجلًا بمعنى الكلمة يتحمل كل تبعات الحياة ومسؤولياته!

* * *

من لحظات وجيزة، رأيت الدهشة بادية عليك حينما دخلتَ غرفتي ووجدتني جالسًا إلى مكتبي أسطر هذه الكلمات وأنا في ثوب

العشاء، فقد تسمرت قدماك بالباب وأنت تلقي نظرة خاطفة على ما أمامي من الأوراق.

- أوه! معذرة لم أعرف أنك تعمل.

وقد أجبتك:

- لا، لستُ مشغولًا.

- إنما كنت أبحث عن علبة سجائر.

وكنت أعلم أنك تستضيف صديقًا في غرفتك، فقد رأيته حيثما دخلت عليك غرفتك منذ ساعة، فتى أسمر مليح الوجه كث الشعر له عينان سوداوان جميلتان، وكان يجلس بجوارك وبين يديه كراسة، وما كاد يراني، حتى وثب واقفًا في احترام، وقدمتَه إليَّ قائلًا: «صديقي جورج زابو».

ولقد سألته:

- أفي «الليسيه كارنو» أيضًا؟

فأجابني في صوت موسيقي:

- إنني أتهيأ لدخول امتحان البكالوريا مثل ابنك.

ثم أردف باسمًا:

- وإن لم أكن لسوء الحظ في ذكائه وألمعيته!

وما كنت قد سمعت بعد أن رفاقك يقدرون فيك ذكاءك، وربما كانوا على حق، فقد بلغني أن أساتذتك يرون فيك معالم النبوغ

والرغبة الجادة في الدرس والتحصيل، ومع كل ذلك فإني -وأنا أبوك- لا أعرف الكثير عنك!

وحتى أصدقاؤك لا أعلم عنهم شيئًا، ما عدا النادر جدًّا ممن أفاجئه لديك من قبيل المصادفات مثل «جورج زابو»، وكنت ألمح معالم اللهفة على وجهك والرغبة الشديدة في انصرافي وعدم إطالة مكوثي معكما.

واستطرد «زابو» يقول في أدب جم حين رآني أرتدي ثوب العشاء:

- معذرة لحضوري في هذا الموعد غير المناسب، كنت أبحث عن ورقة فيها بعض تمارين الجبر وأنا في سبيل مراجعة هذه المادة في بيتنا، فلم أجدها، ولما كان صديقي «جان بول» أقرب زملائي إلينا.

- أتسكن قريبًا منا؟

واتسعت ابتسامته وهو يجيب:

- بل في المنزل الملاصق لكم تمامًا.

وشعرت كأنما ثمة ما يربطني بهذا الفتى، ليس اسمه فحسب، ولا محياه الوسيم الذي كان يذكرني بشيء جميل حبيب إلى نفسي، وإنما هو إحساس غريب خامرني بأني أعرفه منذ وقت طويل.

وحتى لا أسبب لك مزيدًا من الضيق انصرفت، وأنا أقول:

- استمرا في دروسكما.

ثم عدت إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمك تعد كؤوس الشراب للضيوف، ولم يكن من عادتك أن تحضر سهراتنا، ولكنك كنت تحضرها كارهًا بناء على إصرار أمك، فتمكث بيننا دقيقة أو

دقيقتين، ثم تفر هاربًا إلى المطبخ، وعندما أردت أن أهديك سترة للعشاء بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر قلت لك:

- لا بد للإنسان أن يتعود حضور العشاء بسترة خاصة وهو في السادسة عشرة، وإلا فلن يعرف كيف يرتديها إذا تقدم به العمر!

وأجبتني بأنه لا يزال في الوقت متسع، وبأنك لا تميل إلى تقييد نفسك بمثل تلك الشكليات، وكان الحق معك يا ولدي. فأنا نفسي لا أفعل ذلك إلَّا مضطرًا، ولست أحب تلك السهرات التي أدمنت أمك عليها، فهي إذا لم تقض المساء في السينما دعت لدارنا بعض مشاهير القوم مهما كان سبب شهرتهم!

وكان قد حضر لزيارتنا هذا المساء -آل ترمبلي- و«ميلدرد» و«بيتر هوجان» اللذان كانا يدعواننا بأسمائنا المجردة على الطريقة الأمريكية، وكذا النائب «لانيير» الذي يعتبر البيت بيته، وزوجته وابنته «ميرييل».

وحينما رأتني أمك سألتني -من أجل «ميرييل» بلا شك-:

- هل «بول» هناك؟

- معه صديق يستذكران دروسهما معًا، ولقد تركتهما لتوي غارقين لآذانهما في الجبر!

و«بياتريس لانيير» من أعز صديقات والدتك، وخاصة بعد أن أمسى زوجها المحامي «لانيير» عضوًا في البرلمان عقب الانتخابات الأخيرة، وكان واضحًا لكل ذي عينين أن «ميرييل» تنصب شباكها حولك، وأنت عنها غافل.

وحتى أجعلهم يتركونك وشأنك، أردفت:

- لم أكن أعلم أن له صديقًا يقيم في البيت الملاصق لنا، بل وفي عامه الدراسي نفسه! لقد رأيته فوجدته فتى مهذبًا جميلًا اسمه «جورج زابو».

ورأيت النائب يتبادل نظرة ذات معنى هو زوجته التي قالت تسأل والدتك:

- أتعرفينه يا «أليس»؟

- لم أسمع به من قبل، ولا أعلم هل بنات اليوم يفعلن ذلك أيضًا؟ ولكن «جان بول» لم يحدثني قط عن أصدقائه أو حياته الخاصة.

- أنت تعرفين أمه على أي حال «وذكرت اسم إحدى ممثلات «باريس» المشهورات».

وحينما حضرت إلى غرفتي تسأل عن صندوق السجائر سألتك بلا اكتراث:

- أتعرف مَن تكون أمه؟

فأجبتني ببساطة: نعم، طبعًا.

ولكنك لا تعرف أي حياة مملوءة بالمتناقضات يعيشها صديقك؟

فالملايين من الناس في كل أرجاء الدنيا يعرفون أمه ويعجبون برشاقة قوامها وملاحة وجهها، كما يعجبون بفنها الرائع، وأنا نفسي -حين كنت أصادفها في طريقي بالشانزليزيه، تتهادي كالغزال وعلى كتفيها معطف من الفراء الثمين زادها فتنة وجمالًا والناس يتابعونها

بأنظارهم، والشباب والفتيات من طلبة المدارس يتدافعون نحوها ملتمسين أن توقع لهم بإمضائها على كراساتهم- لا أخفي عليك أني كنت أشعر بعنقي تلتوي للخلف بالرغم عني؛ لأشبع عينيَّ من النظر إلى وقارها وحسن هندامها.

تُرى.. هل يكون أي إنسان سعيدًا بمثل هذه الأم؟

وإذا كانت حياة الناس ملكًا لهم وحدهم، يعيشون كما يحلو لهم، فإن حياة أهل الفن ملك لجماهير العشاق وملايين المعجبين، يتعطشون لدس أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة في شؤونهم الخاصة، فالناس كلهم يعلمون أنها لم تتزوج زواجًا شرعيًّا إلَّا منذ اثني عشر عامًا فقط، وكان صديقك جورج في الخامسة من سنوات حياته، ومع ذلك لم يستمر زواجها أكثر من عام.

و«زابو» نفسه الذي لا يزال على قيد الحياة، لا يستقر في بلد واحد، فهو بالأمس في «اليونان» واليوم في «بناما»، وغدًا في «الولايات المتحدة» يباشر أعماله الكبيرة في كل تلك الجهات، وهو أيضًا ممن يشار إليهم بالبنان؛ فحياته العامة والخاصة مثار اهتمام الجماهير والصحف.

وهو لا يرى ابنه إلَّا مرة واحدة كل عام، في مدينة «فيشي» التي اعتاد أن يمضي فيها شهرًا للاستشفاء، فيمضي ابنه تلك الفترة معه.

ولست أعلم: هل يداوم على الاتصال بولده في غير ذلك مستفسرًا عن متاعبه وتقدمه في دروسه ومشاركته في مشاكله كما يفعل الآباء نحو أبنائهم، أو يكتفي الابن بمتابعة ما تنشره الجرائد والمجلات المصورة عن تنقلات أبيه على ظهر يخوته الضخمة، وسياراته الفخمة،

وخيوله التي تجري في ميادين السباق، أو مغامراته الغرامية مع النساء من كل لون وجنس؟

وظل ضيوفنا يتحدثون، ولعلهم ما زالوا يتناولون أسرة «زابو» بالتجريح والتشريح.

وفي البداية سعلت زوجة الدكتور «ترمبلي» لتسترعى نظر السيدة «لانيير»، بأن ابنتها الشابة الصغيرة تنصت إلى ذلك الحديث، ولكن السيدة «لانيير» قالت:

- لا أرى بأسًا من أن نتحدث في وجود «ميرييل»، وقد يكون لديها ما تضيفه إلى معلوماتنا.

وعندئذ.. انسحبتُ لأنفرد بنفسي.

لم أكن أعادي مخلوقًا وخاصةً ضيوفنا.. أو أكره رؤيتهم.

بيد أني كنت أشعر بأن لا مكان لي بينهم، فأتركهم لشأنهم، وأنطلق إلى مكتبي.

* * *

وحين كنت في الثامنة من عمرك، لا بد أن أحد زملائك في المدرسة قد سألك يومًا ما:

- ما حرفة أبيك؟

فنحن -وإن لم نكن واسعي الثراء- يعلم جميع أصدقائك التلاميذ والباعة وسكان الحي جميعًا الذين يعرفوننا، أننا في سعة من العيش.

فنحن نسكن في أجمل أحياء «باريس» وأهمها على قيد أمتار من

«قوس النصر»، وفي مواجهتنا يقيم رئيس الوزارة، كما يجاورنا كبار الساسة ورجال الفكر والمال والسفراء.

ولدارنا –شأن جميع الدور في ميدان «ماكماهون»– بوابة ضخمة من السنديان اللامع، عليها مقابض نحاسية رائعة، ومدخل متسع تغطيه السجاجيد الحمراء التي تمتد فوق درجاته الرخامية، وغرف جميلة مشمسة فسيحة الأرجاء.

وعندنا الوصيفة «إميلي» التي لم تفارقنا منذ خمسة أعوام، ثم الطباخة العجوز زوجة الرجل الذي يعمل في الحرس الجمهوري.

ثم لدينا سيارة لا بأس بها شكلًا وموضوعًا، وإن لم تضاهِ في روعتها مئات السيارات التي تقف في منحني الميدان القريب من بيتنا.

وأخيرًا، وليس آخرًا فإن والدتك تضع فوق كتفيها فراء ثمينًا يساوي وحده ثروة طائلة، بالإضافة إلى ذلك المعطف الجميل الذي اشتريته لها أيام زواجنا المبكر.

وكدت أنسى أن أذكرك بأننا نذهب كل صيف إلى ساحل «الأركاشون»، أما في الشتاء فنقضي أعياد رأس السنة في ملهى كبير. ثم نذهب للتزحلق فوق جليد «سويسرا».

ولا ريب في أن جميع أقرانك في «الليسيه كارنو» من أبناء الذوات وفي مستواك نفسه تقريبًا، فليس ثمة ما تخشاه من أسئلتهم الفضولية كما كان يحدث لك وأنت في المدرسة الابتدائية.

وأكاد أقسم أن أحدًا من أصدقائك الصغار قد سألك «ما حرفة

أبيك؟»، وأنك قد ترددت كثيرًا قبل أن تسألني:

- من أين تحصل على المال يا أبي؟

فلقد اعتدت أن تراني أخرج في الصباح حاملًا حقيبة أوراقي، ثم أعود في الظهيرة للغذاء، وفي المساء أعتكف في مكتبي وأتناول عشائي وحيدًا، وإذا ما أحدثتَ جلبة أو رفعتَ صوتك وضعت أمك سبابتها على شفتيها، وتقول لك:

- أُش! لا تزعج أباك، إنه يعمل!

وإذا ما بدا عليَّ ضيق أو أفلتت مني أعصابي في أثناء الطعام، تقول أمك معتذرة:

- أبوك مرهق قليلًا.

وأذكر أني أجبتك وقت ذاك باسمًا بقولي:

- أحصل على المال كأي إنسان بالعمل.

- وما عملك؟

- أنا خبير في شركة التأمين.

ورأيتك تقطب جبينك الصغير في حيرة؛ لأنك لم تشف فضولك، فمن بين أقرانك أبناء لأطباء أو قضاة أو محامين. ومنهم مَن هم أولاد أناس مفرطي الغني لا يعلمون، ومنهم مَن هم أقل ثراء، أو ربما فقراء عاملون في المتاجر أو المصانع، ولكن ليس بينهم مَن يعمل أبوه خبيرًا في شركة تأمين.

- وهل لك مكتب تعمل فيه؟ وهل هو مكتب كبير؟

وكان الوقت صيفًا، والنافذتان الكبيرتان مفتوحتان على مصاريعهما وزهرة الآنسة «أوغسطين» تبدو في أتم رونقها وبهائها في الأصيص الجميل على حرف نافذتها، وكنتُ في أحسن حالاتي صفاء، فأسعدني أن أراك تهتم بي أخيرًا، وأجبتك في رضًى وسرور:

- إن مكتبي في أعظم المباني في «باريس» وأضخمها بشارع «لافيت»، شارع الذهب والمال حيث تتداول الأيدي بلايين الفرنكات كل صباح، وليس بفرنسا كلها شارع مثله، وتملكه أكبر شركة تأمين في العالم.

وثق بأني لم أقل ذلك غرورًا، ولكنها الحقيقة التي قد تعرفها الآن بعد أن تجاوزت السادسة عشرة، ومع ذلك فقد عدت تسألني:

- أتجلس خلف نافذة الصرافة؟

- كلا.

- أتكتب طوال اليوم وتحل تمارين الحساب؟

- تقريبًا، إنني أحسب احتمالات الحياة والأخطار.

وعندئذ نهرتك أمك فقالت: «عسير عليك أن تفهم ذلك الآن، استمر في عشائك».

فأجبتها غاضبًا: «حسنًا، إنني مستمر!».

ولم أكتفِ بذلك فقد أردت أن أشبع فضولك، وأخذتك معي مساء الأربعاء إلى شارع «لافيت»، ولاحظت عليك معالم الدهشة والرهبة وأنت تدلف من بين الباب البرونزي الكبير إلى الردهة العريضة

الطويلة ذات الرخام الأسود اللامع، وسألتني مشيرًا للحارسين ذوي الثياب الرسمية والأزرار الذهبية وهما يؤديان لي التحية:

- هل هما شرطيان؟

- كلا، بل هما حارسان.

- ولماذا يحملان مسدسين في حزاميهما؟

وحينما حياني كبير الخدم بالباب، قلت:

- لماذا يعلق سلسلة فضية حول عنقه؟

كانت تلك الفترة الوجيزة التي قضيتها معي وقتئذ من أجمل لحظات حياتي، ولا تسل عن سعادتي وأنا أريك المصعد الكهربي الذي يسع عشرين شخصًا، والمماشي الطويلة المكسوة بالسجاد السميك، وعشرات الغرف ذات الأبواب المصنوعة من الخشب الثمين اللامع وعلى كل منها رقمها النحاسي، كذلك شعرت بالسرور وأنا أصعد بك الطابق الثالث من مؤسستنا الضخمة التي تعمل كأنها خلية النحل، إلى حيث غرفتي الخاصة وعلى بابها لافتة «ممنوع الدخول»، فسألتني في دهشة:

- لماذا لا يسمحون للناس بالدخول؟

- عمل الخبير الحسابي لا يتصل بالجمهور، ولا ينبغي إزعاجه.

- وما السبب؟

- ذلك لأن عمله ذهني شاق يحتاج للهدوء، وأيضًا في غاية السرية.

وبدت عليك أمارات الارتياح حينما دخلت غرفتي الواسعة الأنيقة، ورأيت مكتبي العريض وتليفوناته الثلاثة، وبجواره الخزانة الحديدية الضخمة، والآلة الإلكترونية الحاسبة، ثم غرفة المساعدين المحاسبين، وبجوارها غرفة الكتبة الذين يعملون تحت إمرتي، والأرفف التي تغطي جدرانها حتى السقف والحافلة بالمجلدات والملفات.

ولم تأتِ بعد ذلك لزيارتي إلَّا مرتين أو ثلاث مرات في مرورك العابر. إما لتحمل لي رسالة من والدتك، أو لأننا تواعدنا على اللقاء، وكان آخرها منذ شهرين لا غير حين جئت في السادسة مساء لأرافقك إلى الحائك الذي يخيط لك ثيابك.

ومنذ ذلك اليوم لم تسألني عن طبيعة عملي، ولعلك تكون قد وجدت وقت ذاك الإجابة التي أقنعتك، أو ربما تلقيت بين دروسك في «الليسيه» عمل الخبير الاكتواري في شركات التأمين.

وعلى أي حال، فما أشك أن ابن الثامنة قد كون في رأسه صورة عن أبيه، فأنا أشغل مكانًا وسطًا بين درجات السلم الاجتماعي أرفع شأنًا من أولئك الموظفين الذين رأيتهم يعملون في مكاتبهم بالطوابق السفلي، وأدنى قدرًا من أولئك المديرين الذين يجلسون في مقاعد وثيرة تدور حول نفسها ويعبثون بسلاسل ساعاتهم الذهبية بين أصابعهم المزينة بالخواتم ذات الفصوص الضخمة، ولهم غرف خاصة لاستقبال الزائرين وجلوسهم، حتى يُسمح لهم بالمثول بوساطة الحُجَّاب على الأبواب.

وباختصار أنت لم تمتلئ بي زهوًا وافتخارًا، كذلك لحسن الحظ لم تصدم في أبيك مما يجعلك تحني رأسك بين أقرانك ذلًّا وعارًا.

وربما تخيلتني في رأسك الصغير رجلًا معدوم المواهب والرغبة في المجد والطموح، يهرب من المسؤوليات والمغامرات، فهل لي أن أسألك بدوري: ماذا تتمنى أن تكون بعد عشرة أو عشرين عامًا للأمام؟

أنا لم أحاول أن أسألك قط، لعلمي أن الإجابة -ومن طفل في سنك- لن تكون سهلة أو يسيرة المنال، وأمامك المستقبل لا يزال عريضًا حافلًا بالأحداث والمفاجآت، على الرغم من أنه كثيرًا ما وجه إليك ضيوفنا ذلك السؤال، والناس مغرمون بتوجيهه دائمًا لأطفال أصدقائهم على سبيل المداعبة: ماذا تحب أن تكون عندما تكبر يا بني؟

ويبدو الغضب على وجه أمك حينما تسمعك تقول: «لست أدري!».

فتقول لضيوفها معتذرة: «يُخيل إليَّ أن جميع أطفال هذا الجيل على هذا الطراز، لا يعلمون ولا يبالون! ولا يحددون هدفًا معينًا للمستقبل. كل ما يهتمون به في هذه الأيام هو الجري إلى المدرسة، ثم الذهاب إلى السينما!».

وكنت ألمحك تطرق برأسك خجلًا، فأرثي لك، فهل تراك قد أحسست وقتئذ بأن قلبي معك، وأني لا أؤمن بتاتًا بما يعتقده بعض الناس من أن الدنيا تشهد أجيالًا أسوأ من سابقيها.

أما أنا حينما كنت في مثل عمرك ويفاجئني أحدهم بذلك السؤال

السخيف، فإني كنت أجيبه على الفور: «سأدرس القانون»، لا لرغبة حقيقية في نفسي، بل لعلمي أن تلك الإجابة تسعد أبي، فقد كنت أرتجف فزعًا من مجرد التفكير في ارتداء «روب» المحاماة مواجهًا الجمهور والخصوم والقضاة، أو في أي عمل له احتكاك مباشر بالناس، وكان حلمي الأكبر هو أن أغدو أستاذًا في العلوم أنزوي في معملي الخاص، أجري فيه ما أشاء من الأبحاث بعيدًا عن الأعين والأنظار!

ثم انتهى بي المطاف لأتولى منصب المحاسب الاكتواري في أهم شركات التأمين بفرنسا.

وصدقني -ولا أقول ذلك زهوًا أو غرورًا- إنني أؤدي من خلف ذلك الباب اللامع المغلق المعلقة عليه لافتة «ممنوع الدخول» عملًا بالغ الأهمية شديد الحساسية في عالم المال والاقتصاد، لستُ حقًّا ممن يجري الذهب بين أصابعهم، أو ممن ترمقهم الأعين في تلك المكاتب الواسعة ذات التماثيل الرخامية الرائعة والأثاث الفاخر، ومع ذلك فأنا الجندي المجهول الذي يحمل على كاهله أثقل الأعباء!

وستدهش حين أقول لك: إني قد حققت أيضًا حلمي الكبير «أستاذ العلوم الذي يُجري الأبحاث الخطيرة في معزل عن الناس»؛ فإنني داخل مكتبي أبحث علميًّا وتحت مجهر مكبر طبيعة الكوارث بكل أنواعها برًّا وبحرًا وجوًّا، سواء أكانت عن وفاة أو حريق أو غرق أو حوادث سفن وطائرات، أو مخاطر طبيعية واقتصادية وجنائية، ربحًا أو خسارة.

ومن أجل هذا، رأيت في مكتبي تلك الآلة الإلكترونية الحاسبة التي أثارت فضولك.

ومعذرة إن كنت أبعث في نفسك الملل، وأنا أذكر لك ذلك.

ولكني أريد أن أثير في نفسك الشعور بالاهتمام بعمل أبيك، فهل تصدق مثلًا أن كل كشف جديد في دنيا الطب والدواء يقلب تقديراتنا كلها رأسًا على عقب، وأن أي تغيير في رغبات الناس أو ما اعتادوه من طعام أو شراب أو كساء يقلل أو يضاعف الحد الأدنى الذي ينبغي أن يدفعه المُؤمَّن عليه، وأن أقل خلاف في تقدير سرعة الرياح أو شدة الأمواج أو مدى ما تتعرض له البلاد من وباء مثل الإنفلونزا أو الكوليرا، تحملنا خسائر تزيد عن بلايين البلايين من الفرنكات، بالإضافة إلى تلك الزيادة المطردة في السيارات التي تجري على الطرق البرية بسرعة البرق. والآلات الكهربية التي لا يخلو منها بسبب تقدم الحضارة أي مصنع أو مكتب أو بيت ويستخدمها الناس في كل شيء، وما يسببه كل ذلك من كوارث في الأرواح والأموال!

وهكذا ترى أن جميع أولئك البشر الذين ينطلقون أمامك في شوارع «باريس» وعواصم البلاد الأخرى يدخلون الآلات ذات الفعل الإلكتروني، ويخرجون منها أرقامًا ورموزًا، وعلى أساس تقديراتنا تعمل هذه المؤسسة الضخمة من أول ذلك الساعي الصغير حتى مديرها الكبير!

وأكاد أشعر بنفسي -وقد غدوت مجموعة من الرموز والأرقام، حتى أولئك الضيوف الذين تركتهم توًّا مع والدتك- أراني فقدت

الاهتمام بهم كمخلوقات من دم ولحم، مما يفسر لك غرامي في الاعتكاف وحدي.

ومنذ سنوات وأن أرقبك خفية لأرى: هل تحب أمك أكثر مني، أقصد: هل هي أقرب إلى قلبك مني؟ وهل تحقق في خيالك الصورة التي يتمناها كل ابن لأمه؟

إنها -وإن كانت صارمة حازمة في معاملتها لك، كما هي معي أحيانًا- لا ينقص ذلك من حقيقة حبها لك، وهو حب يختلف كمًّا وكيفًا عما تشعر به هي نحوي.

وأكاد ألمس من طريقتها أنها تريد أن تخلق منك رجلًا مثاليًّا، تحددت صورته في أحلامها، وأنها في سبيل ذلك قد تشتط في قسوتها كلما بدر منك ما يعكر صفو تلك الصورة الجميلة التي تحب أن تقدمها في طبق من الذهب لمن اختارتها لك شريكة العمر «ميريل»، حتى تليق بمصاهرة وزير المستقبل، أو ربما أصبح رئيسًا للوزارة قريبًا أو بعد حين!

أنا لا أبخس والدتك قدرها، أو أحاول أن أحط من شأنها أمام عينيك.

ولعلك قد أدركت بما أوتيت من ذكاء وفطنة أنني وأمك لسنا بالزوجين المثاليين بما تحويه العبارة من معان، ولا أعني بذلك أن أحدًا منا يكره الآخر أو يتمنى فراقه، فنحن راضيان قانعان بأن نكون صديقين فحسب، لكل منا غرفته الخاصة، نشترك في أوقات الطعام، كما نشترك في الاسم الواحد.

وقلما نتشاجر في وجودك، وفي الحق نحن لا نتشاجر أبدًا في هذه الأيام؛ لأننا لا نلتقي إلَّا نادرًا وفي المناسبات.

ولم يحدث ذلك فجأة، بل تدريجيًّا وعلى مر الأيام، وبعد أن تزوجنا ببضعة شهور.

وأنا لا ألومها في ذلك مطلقًا، فالذنب ذنبي بمفردي، وأنا الذي أسأت لنفسي ولها أيضًا.

ولكن مهلًا، فما زال أمامنا متسع من الوقت، حتى نخوض معًا ذكريات الماضي.

وما بدأت قصتي بالحديث عن جدك؛ إلَّا لأن مراسم دفنه هي التي أوحت إليَّ بالكتابة إليك، وأهم من ذلك أيضًا أنه كان أهم شخصية لعبت دورها في مأساة عام ١٩٢٨، كذلك كان الضحية الأولى في أسرة «فرنسوا»، وقد شاءت الأقدار أن يتلطخ اسمه وهو في أوج مجده بالخطيئة والعار.

وعندما تزوجت والدتك في ١٩٣٩ لم يكن أحد منا تنقصه الخبرة أو التجربة، بل كان كلانا عاقلًا رشيدًا حنكته الأيام، في الواحد والثلاثين من عمره، ولكل منا ماضيه.

ولم تحاول إخفاء شيء من ماضيها عني، كذلك أنا، اعترفتُ لها في صراحة وصدق بكل ما وقع في «لاروشيل» عام ١٩٢٨.

وثق بأن ما ستعرفه في السطور القادمة عن والدتك، سوف

يضاعف من حبك لها، أما أنا فلست أدري يا ولدي: هل ترحمني أو تلومني بعد مماتي؟

* * *

كان ذلك آخر ما سطره قلمي حتى مساء الجمعة.

وكنا قد ذهبنا البارحة -السبت- إلى المسرح من دونك، ولم نطلب منك أن ترافقنا، لكثرة ما كنت ترفض في المرات السابقة، مفضلًا أن تقضي الوقت مع بعض أصدقائك، مما كان يحز في قلب والدتك قليلًا.

واليوم -الأحد- الطقس قارص البرودة على غير عادته في نوفمبر، الحرارة دون الصفر، وزهرة الآنسة «أوغسطين» لم تظهر في نافذتها إلَّا فترة وجيزة جدًّا في النافذة، حينما استطاع شعاع هادئ من الشمس أن ينفذ متلصصًا من بين السحب ليطبع قبلة خاطفة على جبين الزهرة، قبل أن تعود إلى أحضان صاحبتها تلتمس الدفء والحب والحنان.

ومزاج أمك -كما تعلم- لا يكون صافيًا معتدلًا أيام الآحاد خاصة؛ لأن صديقاتها لا يلبثن في أماكنهم المعتادة في ذلك اليوم مما يضطرها للحد من برامجها ونشاطها المعروف، فالبيت يخلو من الخدم، ومدام «جولز» الطاهية تختار الأحد من كل أسبوع عطلة لها، كذلك «إميلي» -برغم علمنا الأكيد بأنها ليست حريصة على دينها- تتمسك بحقها القانوني وتغيب حتى الظهيرة بحجة الذهاب للصلاة في الكنيسة، ولا ندري أين تذهب هذه الفتاة في أتم زينتها وأبهى ثيابها ورائحة العطر النفاذ تنبعث من شعرها؟

وتبدأ مشاكلنا منذ الصباح، إن لم تكن في الحقيقة من أمسيات السبت، حيث نفكر في أفضل الوسائل لقضاء اليوم، فمن أثقل الأمور على النفس أن نقضيه بين جدران البيت معًا، ثم الحدائق والشوارع مزدحمة لآخرها بالسيارات، غاصة بالمارة والمتسكعين، أما المسارح ودور السينما فحافلة بالرواد والتلاميذ وعاملات المصانع والمتاجر ولا موضع لقدم، والمحال التجارية مغلقة والمصالح الحكومية معطلة، ومعظم المعارف والأصدقاء غائبون في مزارعهم البعيدة في الريف للصيد والقنص في مثل هذا الوقت من العام.

وقامت والدتك إلى التليفون تدير القرص مرات ومرات، ولم تجد إلَّا أسرة «ترمبلي».

وكما تعلم، اعتذر «ترمبلي» عن الحضور؛ لأنه الطبيب المنوب هذا الأسبوع، واقترح أن نذهب جميعًا إلى شقته التي يستعملها سكنًا وعيادة لمرضاه في ميدان (ترنيه)، والتي يمتلئ هواؤها برائحة اليسول والكلوروفوم، ودعانا أن نمضي السهرة معه وزوجته في لعب الورق.

ولم أشعر هذا الصباح برغبة في نفسي للكتابة، فأمضيت فترة الصباح غارقًا في مقعدي الوثير خلف مكتبي سابحًا في أفكاري.

وفي أثناء تناولنا غداءنا، دق جرس التليفون، فأسرعت إليه أمك. وبرغم بعده عني استطعت أن أميز فيه صوت عمك «فاشيه»، وقالت أمك له:

– شد ما يؤسفنا، إن ذلك مستحيل. سوف نخرج في المساء أنا و«آلين» لزيارة بعض الأصدقاء ولعب البريدج.

وكنا نجلس معًا أمام أطباق المشهيات في انتظار والديك ننصت في صمت.

- آه! ولكن ألَّا يمكن أن يتم ذلك غدًا؟

وتحدث طويلًا، وأمك تصغي إليه.

- حسنًا، أجل، بالطبع، انتظر لحظة.. سأخبره.

ووضعت يدها على بوق المسماع، وقالت:

- هذا «بيير» يرغب في مقابلتنا هذا المساء لتقرير ما يلزم بخصوص المزرعة والقصر؛ لأنه مضطر للسفر إلى «لندن» يوم الثلاثاء في رحلة يطوف فيها بالجزر البريطانية لإلقاء بعض المحاضرات، وقد تطول رحلته، وقد اتصل بمحاميه لتحديد موعد الاجتماع غدًا، فأخبرته بأننا مرتبطون بزيارة، ولكنه مصرٌّ.

وهززت كتفي استخفافًا، كان مجرد التفكير في أن ينتظر شخص ما أباه ليموت حتى يرث فيه، يبعث في نفسي الاشمئزاز، ومن الخير أن ننتهي من ذلك الشيء المكروه سريعًا، فقلت لها:

- ما عليك إلَّا أن تتصلي بالسيدة «ترمبلي»، وتعتذري لها بأننا لن نستطيع الحضور لأسباب عائلية طارئة.

وأظهرت أمك استياءها بنفخة من أنفها، وقالت:

- هكذا يفعل «بيير» دائمًا، يفاجئنا بتحديد مواعيده في آخر لحظة!

ثم رفعت يدها عن المسماع، وقالت تُحدِّثُ «فاشيه»:

– «بيير»؟ سنشعر بكثير من الحرج أمام أصدقائنا الذين يتوقعون حضورنا، ولكن ما دمت مصرًّا... ماذا تقول؟ انتظر لحظة!

والتفتت تسألني:

– أهنا أم في شارع «دي باسي»؟

وكانت أمك تفضل لو انتقلنا إلى شقة عمتك، فتكون قد خرجت من بيتها على أي حال، ومع ذلك فقد أجبتها في حزم:

– بل يحضران هنا!

ولا بد أنها فهمت قصدي، ولكنها لم تجرؤ على معارضتي، فأنا وريث أسرة «لافرنسوا»، وما عمك «فاشيه» إلَّا زوج شقيقتي، وليس من حقه أن يدس أنفه ويحشر نفسه فيما لا يعنيه من أمورنا، فلا أقل من أن يحضر هو إليَّ –إذا أراد–، ولسوف يضايقه ذلك بلا ريب وقد اعتاد أن تجاب أوامره وتطاع على الفور لمجرد أنه أديب كبير مشهور، يلمع نجمه في جميع الأوساط.

وأنني لأعلم أنك قد تأثرت بشخصيته، وتمتلئ نفسك زهوًا وتنفخ صدرك فخرًا حينما تسمع اسمه يتردد في الصحف أو الإذاعة، أو حين تجد صديقًا لك يقرأ في شغف إحدى روائع قصصه فتقول: «هذا عمي!».

ونحن مقتربان في السن، ولا يكبرني بأكثر من أربعة أعوام، لكنه يبدو أصغر مني سنًّا؛ لأنه دائم الحركة جم النشاط لدرجة مذهلة، لم يترك بابًا للشهرة إلَّا طرقه وامتد نشاطه الفكري إلى الميادين كافة. في المسرح والسينما والتليفزيون، كما أنه ينتمي لعدة نقابات ونواد في كل بلد.

حتى زوجته –شقيقتي «آرليت»– التي كانت في السنوات الأولى لزواجها تعاونه في كتابة مقالاته وقصصه على الآلة الكاتبة، انتقلت إليها عدوى الحماس والشهرة، فبدأت تكتب مقالات في شتى الموضوعات للمجلات النسائية أولًا، ثم في جميع وسائل النشر والإعلام، حتى ذاع صيتها هي الأخرى، واحتلت مركزًا في الأدب يضاهيه، وكثيرًا ما تراهما مدعوين إلى إحدى الحفلات، كلًّا على انفراد، وبدعوة خاصة باسمه.

هذا هو «بيير فاشيه» الذي سوف أحدثك عنه فيما بعد، والذي لم يكن حينما تزوج شقيقتي «آرليت» إلَّا كاتبًا مغمورًا في قلم المباني والأشغال المدنية، القسم الخامس من مبني محافظة «سارنتي» التي كان أبي حاكمها العام في عام ١٩٢٨، وكان خشن الطباع أصفر الشعر والوجه نحيل القوام، ولم يتغير فيه شيء بعد ثمانية وعشرين عامًا إلَّا شعره الذي مضى إلى غير رجعة، لكن صلعته أكسبته صحة وشبابًا، حتى أمسى من العسير أن تقدر عمره!

وقالت والدتك: ابدآ في طعامكما، سوف أتصل بآل «ترمبلي» فورًا.

وأمك دون أي إساءة لها تشعر بالإعزاز والفخر لأنها تصاهر مثل ذلك الرجل العظيم، وكثيرًا ما عبرت لي عن أسفها؛ لأن «فاشيه» لم يزرنا قط في الأيام الأخيرة، والحق يقال، إنه لم يطأ عتبة بيتي منذ سنوات، بل كان يرسل بين الفينة والأخرى بطاقات دعوات لحضور الحفلات التي سيلقي فيها محاضرات أو تعقد لتكريمه!

وحين عادت للمائدة، كانت متوترة الأعصاب، فإن السهرة التي

أعدتها قد أخفقت بذلك الموعد المفاجئ، فمضيت أتساءل مَن يا تُرى سيكون الضحية التي ستنفث فيه غضبها، والبيت خال من الخدم؟

وكنت أنت تلك الضحية يا ولدي، فلقد نظرت إليك فجأة وهي تطبق فوطتها، وقالت تسألك:

- ما الذي ستفعله هذا المساء؟

وأجبتها أنت في شرود: «لست أدري!».

- أخارج أنت؟

وبدت عليك الدهشة، فهي تعلم أنك نادرًا ما تمضي أمسيات الآحاد في البيت.

- أجل، أظن ذلك..

ولا بأس أن أصارحك بأن لك طريقة في الإجابة كفيلة بأن تثير أعصاب الحليم، ومع ذلك فأنا أعلم أنك لا تقصد أن تكون خشنًا، وإنما هي حدة في طبعك، وأنك في أغلب الأحيان تنسى ما ينبغي عليك من رقة وأدب في مخاطبة والديك، وكنتَ متحفزًا كالملاكم الذي يشمر عن ساعده للدفاع عن نفسه، ولعلك قد أثارتك أسئلتها التي تمس تحركاتك التي تعتقد أنها تخصك وحدك.

وهتفت أمك في غضب:

- هل تظن ذلك؟ أو أنك واثق من نفسك؟

- لست أدري يا ماما.

- أذاهب أنت إلى السينما؟

- ربما.

- مع مَن؟

- لا أعلم!

- ألَّا تعلم مع مَن ستخرج بعد قليل؟

وكنت ألتمس لك العذر وأقدر موقفك؛ لأني مررت بتلك المرحلة في صباي، كذلك كنت أفهم سبب غضب والدتك أيضًا، لقد نسيت أنك لم تعد طفلًا، وأن الفتى في عمرك يمقت كل نوع من الرقابة، وأنا شخصيًّا حينما كنت في مثل سنك كنت أغادر بيتي بلا هدف محدود، وأمضي أفتش عن أصدقائي في كل مكان: في المقهى، على أبواب السينما، أو ربما على ناصية شارع ما. وعندما نتقابل ننطلق ونذرع الطرقات والميادين ذهابًا وإيابًا حتى تكل أقدامنا ونشعر بالتعب، ثم نفترق. وكنت إذا فشلت في العثور على أحد من رفاقي هنا أو هناك أذهب أقرع أبواب دورهم، حتى أجد ضالتي. ذلك ما كنت أفعله.

أما أنت فقد غمغمت وأنت تنظر في طبقك:

- نعم، لست أدري!

- وأين كنت تذهب في أمسيات الآحاد قبل الآن؟

- على حسب الظروف!

- أترفض أن توضح لنا أين وكيف تمضي أوقات فراغك؟

وكنت ألمحك تزداد تحفزًا وأنت تنكمش حول نفسك رويدًا رويدًا، وكأنك تتسلل في قوقعة توشك أن تغلقها عليك، وسمعتك تجيب واجمًا:

- أما قلتُ لك على حسب الظروف؟

وأكاد أقسم أن الأمر لا يعدو أمرًا من اثنين لا ثالث لهما. إما أن للبنات نظامًا خاصًّا في الإفضاء بكل ما في قلوبهن لأمهاتهن، أو تكون أمك قد نسيت أيام طفولتها، فما زالت مصرة على اقتحام تلك القلعة المغلقة التي تحتفظ فيها بأسرارك، وكأنها تجهل أنه ما من بشر في الدنيا -وفي أي طور من أطوار حياته- لا يحتفظ في ناحية من قلبه بأشياء عزيزة على نفسه يكره أن يطلع عليها مخلوق مهما كان شأنه!

وبهذه المناسبة: هل تذكر حينما كنت أسألك -وأنت في الخامسة من عمرك- في بعض الليالي عما فعلته في المدرسة ذلك اليوم؟ وكانت إجاباتك لا تختلف عما تجيب به الآن!

- لا شيء!

- أليس لك أصدقاء صغار يشاركونك في اللعب مثلًا!

- بلى.

- مَن هم؟

- لا أعلم!

- وما الذي تعلمته في المدرسة اليوم؟

- أشياء كثيرة.

فقد كنتَ -وفي تلك السن الصغيرة- تشعر بحاجتك إلى الاحتفاظ بالصندوق المغلق بما يحويه من غموض وأسرار، لا تحب أن يفضه إنسان!

ولكن ذلك لم يرض والدتك، ألم أقل لك أن أعصابها كانت في بداية الأمر متوترة؟

– أتسمع كيف وبأي لهجة يخاطبني ابنك يا «آلين»؟

– أجل، أجل!

رباه! وما الذي كان في وسعي أن أفعله؟

– كأنك تجيز سلوك ابنك الشائن! فتى في السادسة عشرة يأبى أن يصارح أبويه بما ينوي أن يفعله!

وغمغمتَ تقول محاولًا إنقاذ الموقف: «أنصتي لي يا ماما».

ولكن الوقت كان قد فات. وإذا بدأت العاصفة فلا قوة في الوجود تستطيع أن تحول دون مضيها للنهاية.

– يجب أن تفهم أن من حقي، بل ومن واجبي أن أعرف كل شيء عنك؛ ما دام أبوك لا يهتم بك أو يبالي.

وامتقع لونك وأنت تسألها:

– وهل ينبغي أن آخذ منك تصريحًا كلما ذهبت إلى السينما؟

– ولم لا؟

– وفي كل مرة أخرج لأقابل صديقًا أو...

– بكل تأكيد!

– وهل تعرفين أيًّا من الأولاد يفعل ذلك؟

كان كلاكما متساويًا في العناد.

- أتمنى أن يفعل كل الأولاد ذلك، وخاصة المهذبون منهم!

- إذَنْ كل أصدقائي غير مهذبين؟

- هذا لأنك تسيء اختيارهم. أما أنت فعليك أن تفهم أنه طالما أنك تعيش معنا تحت سقف واحد، يجب أن تكون مثال الطاعة والأدب والخلق الحسن. تلك واجبات مقدسة ينبغي أن تؤديها نحونا.

وارتعدت شفتك السفلى، وكان يحدث لك مثل ذلك في الماضي وأنت بعد طفل صغير كلما شعرت برغبة شديدة للبكاء، ولكنَّ كبرياءك منعتك من أن تذرف الدموع أمامنا، وحقًّا قلما رأيناك تبكي، وأذكر أنني ضبطتك ذات يوم -حين كنت في الثالثة من عمرك- تحبس نفسك داخل صوان ثيابك وقد انخرطت في بكاء شديد، وكدتُ أغلق الباب عليك بلا قصد، وعندئذ صرخت في وجهي تمنعني بين نحيبك وأنينك!

- اذهب عني، أنا أكرهكم جميعًا!

ولما جذبت ذراعك بالرغم عنك أنتزعك من مخبئك، مضيتَ تركلني بقدميك الصغيرتين، وتُعمل أنيابك الخضراء في يدي، وأنت في قمة ثورتك وغضبك! هل تذكر ذلك يا ولدي؟

ولكنك لم ترفس ولم تعض أمك اليوم، بل وثبت واقفًا في عنف، ومضيت ترمق أمك في حيرة لا تعرف ماذا تقول؟ وأخيرًا قلت متلعثمًا:

- في هذا الحال من الأفضل أن أخرج من هنا فورًا.

ولبثت في مكانك برهة، وكأنك تتوقع أن يلين قلبها لتطلب

منك البقاء، لكنها لم تحرك ساكنًا؛ إذ عقلت المفاجأة لسانها وشلت تفكيرها، وحاولتُ من جانبي أن أشير لك مهدئًا حتى تحنى رأسك الصغير للعاصفة وتنهي الموقف بالاعتذار لها، لكنك لم تعرني التفاتًا!

وكل ما استطعتَ أن تفعله هو أنك غادرت قاعة الطعام ضاربًا الباب خلفك في عنف، وانطلقت توسع الخُطى بما يشبه العدو إلى غرفة نومك.

وعندئذ زأرت والدتك وهي تلهث في عنف:

- هل رأيت؟

- أجل!

- طالما حذرتك! وهأنتذا قد سمعت بأذنيك نتيجة إفراطك في تدليله!

ولم أجب، ووقفت «إميلي» المسكينة حائرة لا تعرف ماذا تفعل؟ وهل تستمر في تقديم الطعام؟

- هاتي الحساء يا «إميلي».

ثم حدجتني بأنظارها، وقالت:

- أنك لم تنبس بحرفٍ أو توجه إليه لومًا، مكتفيًا باتخاذ موقف المتفرج، كأنك راضٍ عن مسلكه، وحقًّا أكاد أكون واثقة من أنك موافق على مسلكه!

ولم أستطع أن أجيبها مؤيدًا اتهامها، وفي الوقت نفسه لم يكن في وسعي أن أكذب فأجيبها نفيًا، فصمتُّ!

- على الأقل أرجو أن أراك تؤدبه على اللهجة المخجلة التي سمعته يخاطبني بها! ولو كنت مكانك، لبدأت عقابه بإصدار الأمر إليه بعدم تركه البيت اليوم كله!

فنهضت.

- إلى أين؟

- سأخبره.

- بماذا؟

- بأني آمره بعدم مغادرة البيت.

- يخيل إليَّ أنك سوف تتلطف في الحديث معه.

- كلا!

- بل ستفعل ذلك، وأقرأ ذلك في عينيك!

وانطلقت إلى الباب -دون أن أجيب-، أما الباقي فتعرفه، إلَّا إذا كنت قد نسيته، ومع ذلك فربما نسيت ذلك حين تقرأ رسالتي بعد بضع سنوات.

وجدتك مستلقيًا بكامل ثيابك في عرض الفراش وقد دفنت وجهك في الوسادة، ولكنك لم تكن تبكي، ومع أنك شعرت بقدومي من وقع خطواتي لم تحرك ساكنًا.

- أنصت إليَّ يا بني

وحركت رأسك قليلًا حتى تبعد فاك عن الوسادة دون أن تريني شيئًا من وجهك.

- لا أريد حديثًا من أحد، لا منك ولا من أي مخلوق!

- ما جئت إلَّا لأخبرك بأن تلزم البيت لا تغادره هذا المساء!

- أعرف ذلك.

وساد الصمت بيننا، وكنت أسمع تنهداتك العميقة تهز قوائم الفراش، وأنا في دوامة من الحيرة لا أعرف هل من المناسب أن أقول لك شيئًا قبل أن أخرج، أو أتركك لحالك؟ وعندئذ سمعتك تقول في صوت متهدج مكتوم:

- اطمئنوا، لن أخرج!

وأقسم أنها كانت لحظة صفاء عجيبة، تجاوبت فيها أرواحنا واتصلت قلوبنا في مناجاة روحية صامتة لم تحدث لنا قط من قبل. وشعرت كأن ضوءًا باهرًا أقوى من شمس مايو الساطعة يملأ غرفتك!

وقبل أن أتركك، ربَّتُّ على كتفك بأصابع مرتعشة حانية، ثم أغلقت الباب خلفي في هدوء دون أن أنطق حرفًا.

- ماذا قال لك؟

- سيظل في الدار.

- أكان يبكي؟

وما كان بوسعي أن أنطق كذبًا، فهززت رأسي نفيًا.

وحينما دقت الساعة الرابعة. وكنا قد أمضينا وقتًا طويلًا مع عمتك وزوجها في غرفة الجلوس، انتهزت فرصة مرور أمك بي، فهمست لها: لعلك قد نسيت «جان بول»؟

وبدا من نظرتها أنها لم تفهم، فلما أومأت برأسي تجاه النافذة حيث أوشكت الشمس أن تغيب، فهمت ما أعنيه فقالت: «حسنًا، سأذهب إليه».

وقلت للضيفين اللذين لم ينجبا أبناء: «مسألة عائلية بسيطة».

ومضيت أصب لهما مزيدًا من الشراب مبالغة في الحفاوة.

وحين عادت والدتك كانت في حالة طيبة، وقالت في صوت خفيض وعلى مسمع من الجميع:

- سيأتي لتحية الضيوف الأعزاء تحية المساء قبل أن يخرج.

وظلت لفترة طويلة تتحاشى النظر في عيني!

واستأنفنا الحديث مرة أخرى بعد خروجك مع «فاشيه» وعمتك.

وكان دوري في النقاش صغيرًا، فقد أحسنت أمك عرض وجهة نظري، والدفاع عن مصالحي بأحسن مما لو كنتُ فعلتُ بنفسي.

وعمك «فاشيه»؛ لأن دخله يكاد يكون ضعف دخلي، بالإضافة إلى ما تربحه عمتك أيضًا من الكتابة والتأليف، يعيش هو وزوجته في إسراف وبذخ شديدين، مع أنه منذ عامين مضيا فحسب، كانت عمتك تتردد على مكتبي تطلب قرضًا يكفي تسديد نفقات البيت حتى أول الشهر!

ولقد فوجئت -يوم وفاة أمي- «بفاشيه» يسألني في لهجة بريئة:

- لا أعتقد أنك تفكر في الإقامة أبدًا في هذا المكان المكروه!

ولم أستطع أن أجيبه وقت ذاك بغير الحقيقة، فلقد انقطعت صلتي

تقريبًا بفيلا «ماجالي» بعد أن مضى عليَّ وقت طويل وأنا أقطن «باريس» بعيدًا عن «لوفيسينيه»، والتي فقدت كثيرًا من أهميتها بعد أن هجرت العائلات القديمة ذات الأسماء الكبيرة قصورها بين أحضان الريف.

وكان جدك وقتئذ على قيد الحياة.

ولكني علمت بعد ذلك بفترة وجيزة وبحكم عملي في شركة التأمين من مصدر أثق فيه، أنه قد تم اتصال بين «فاشيه» وبين إحدى المؤسسات التي تقوم بأعمال المقاولات والبناء، لجس نبضها ومعرفة الثمن الذي تعرضه في القصر لو توسط في عرضه للبيع.

وهو لا يعلم أني أعرف ذلك، ولم أذكر له شيئًا -إلى اليوم- حينما كان يقول:

- كنت أتحدث مصادفة مع صديق لي من رجال الأعمال، وسألني عما ننوي أن نفعله في القصر، وأكد لي أن هذا الوقت هو أنسب الأوقات للحصول على ثمن مغرٍ ربما لا نستطيع الحصول عليه في وقت آخر!

ولم أكن قد أطلعتُ أمك على ذلك السر، ومع ذلك فقد أدركت من نظرتها السريعة نحوي أنها فهمت.

والقصر بحالة مبانيه الراهنة لا يساوي شيئًا، من دون حديقته الواسعة التي تدخل بين أسواره الأربعة العالية..

وقد قامت على جانبي الطريق دور حديثة مرتفعة البناء من ذات الطوابق الستة، ولم يبق إلَّا عدد قليل من القصور الخاصة التي تحكي

العز التالد والرخاء القديم، فلو أتيح لهم إزالة قصر «ماجالي»؛ لشيدوا مكانه عددًا من العمارات الجميلة على أحدث طراز تسكنها مئات من العائلات.

وشد ما كنت أكره من أعماقي أن أسمح ليد الهدم أن تدك ذلك البيت الذي أحبه أبواي، وشهدت فيه ذكريات عزيزة على نفسي مما يفسر تلك النظرة المتجهمة العابسة التي كانت تبدو في وضوح على وجهي. النظرة التي كانت تبدو على وجهك أيضًا وأنت تكتم ثورتك واحتجاجك على ما تتخيله من اضطهاد أمك لك!

كنت أعرف إذَنْ ما وراء ذلك الحماس الذي كان يتحدث به «فاشيه» وهو يبسط وجهة نظره في إقناعنا بقبول ذلك العرض الذي أقبل إلينا يحمله مفوضًا من ذلك الصديق -رجل الأعمال- فقد قيل لي: «إن مؤسسة البناء قد وعدته بعدد كبير من الأسهم لو أفلح في إتمام الصفقة، ودفعنا إلى التخلي عن أرض الآباء!».

ومع ذلك فقد أغلقت فمي وتركت لوالدتك الاتفاق على كل التفاصيل المالية وطريقة الدفع، وكذلك أنجع الوسائل لخديعة الحكومة في إنقاص قيمة التسجيل وشهر الإرث المطلوب منا.

واتفقنا على أن نذهب لمقابلة المحامي في الغد، ولما كان أبي قد توفي دون أن يترك وصية من بعده، فمن المعروف أن الثروة تقسم مناصفة بيني وبين شقيقتي «آرليت».

وكما قلت لك: لم يكن في ذلك أي شيء يدعو للغبطة أو السرور ونحن نتقاسم كالذئاب الجائعة ما تركه لنا الأسد، لذلك شد ما كرهت

أن أرى «فاشيه» يكاد يرقص فرحًا وهو بيننا وكأسه في يده، قائلًا:

– يحسن بنا أن ننتهي أيضًا من موضوع الكتب والمكتبة، إذ لا مناص من أن نبيع كل المنقولات في المزاد!

والمنقولات التي يعني «فاشيه» أنها سوف تباع في المزاد هي الأثاث والمفروشات التي أمضى أبي وأمي جزءًا كبيرًا من حياتهما في جمعها، وقضيا بينها أيامهما الأخيرة.

وفوجئت بشقيقتي «آرليت» تقول:

– ما عدا قمطر أمي الصغير الذي اعتادت أن تكتب عليه، ولقد وعدت قبل وفاتها أن تهديه لي، ولم أشأ أن أقول لكما ذلك حينما ماتت، أما الآن وقد...

وسألتني أمك: «هل كنت تعلم يا «آلين» أن أمك وهبت قمطرها إلى «آرليت»؟».

وكان صوتي خشنًا حادًّا، وأنا أقول فيما يشبه الصياح: «كلا!».

– أوه يا «آلين»! ولكن حاول أن تتذكر يوم أن كنا جميعًا في «لاروشيل».

– كلا!

– ما أضعف ذاكرتك حقًّا! ومع ذلك فأنا ألتمس العذر لك بسبب ندرة زياراتك لأمي في أيامها الأخيرة.

– إن ما أحب أن أعرفه هو ما الذي كان زوجك يريد أن يقوله بشأن المكتبة؟

– آه! مجرد اقتراح فكرت في أن أعرضه عليك، ولكن يخيل إليَّ أن أعصابك ليست على ما يرام.

– هأنذا أنصت إليك.

– أراغب حقًّا في أن تسمعني؟

– أجل.

– لقد كنت أكثر اتصالًا بأبيك، وأعرفه أكثر منك، ففي «لاروشيل» خطبت شقيقتك ثم تزوجتها، وبين جدرانها وضعت باكورة إنتاجي، وكنت أنت في ذلك الوقت لا تزال طالبًا لم تحدد بعد طريق مستقبلك. تارة تقول: إنك تحب الانخراط في السلك الإداري، وتارة أخرى تزعم أنك تفضل أن تكون أستاذًا في العلوم، وفي ذلك الحين كان أبوك عاكفًا على جمع كتب التاريخ والفلسفة والأدب، وفي أثناء وجوده «بلاروشيل» لم يترك أي كتاب جديد وكان يتردد دائمًا على دور النشر ومكتبات سوق «دومیناج»، حيث كانوا يعرفونه كلهم، وكما تعلم كانت القراءة وتنسيق الكتب هي تسليته الوحيدة حتى آخر أيام حياته.

وصمت «فاشيه» لحظة، كان يستجمع أنفاسه ليلقي قنبلته الأخيرة!

– وحيث إني قد اتخذت الأدب حرفة لي ويهمني كثيرًا أن أحصل...

ولا تدهش إذا علمت أني لم ألق بذلك البهيم من النافذة المجاورة، ولم ألكمه أو أصفعه على قفاه، فقد كان اقتراحه يتلخص

في أن يبادلني، لا، ليس ذلك هو التعبير المناسب، بل الأصح هو اختلاس مكتبة أبي بما تحويه من ذخائر نفيسة، مقابل أن يترك لي باقي الأثاث والمنقولات!

ويبدو أنه أساء فهم سكوتي، فقد لبثتُ جالسًا في مقعدي المريح، مشبكًا يديَّ حول صدري، محملقًا في السجادة أمامي، فاسترسل في إغرائه، بل في هرائه:

– أؤكد لك أن من الأثاث تحفًا تعتبر نادرة يتمنى الهواة شراءها بأثمان خيالية، ولا تنس اللوحات الجميلة.

فوثبت واقفًا في حركة عنيفة تمامًا كما فعلتَ أنت على مائدة الطعام، وقلتُ في حدة:

– كلا!

ويبدو أن حركتي كانت مباغتة، وإجابتي كانت في حدة السوط، بحيث ألجموا جميعًا وتسمروا في أماكنهم. وهم يرمقونني في دهشة وخوف، بيد أني أوليتهم ظهري وخرجت بعد أن صفقت الباب خلفي في شدة!

ولم أذهب لفراشي مباشرة كما فعلت أنت، بل انفردت في مكتبي أمضغ غيظي وغضبي، حتى أقبلت أمك تقول: «لقد انصرفا».

ثم أردفت وهي تجلس أمامي في ظلال الغرفة بعيدًا عن دائرة مصباح المكتب الكهربائي:

- حسنًا فعلت بتركك الغرفة، فقد كان يبدو عليك الغضب الشديد، وخفتُ أن تفقد السيطرة على نفسك!

- وماذا قال؟

كنت أعرف من أنه لا بد أن يقول شيئًا، وصمتت أمك لحظة ثم أجابت:

- أتحب حقًّا أن تعرف؟

- نعم، نعم!

- قال: إنه لم يتوقع قط تلك المشاعر الكاذبة التي عبرت بها عن حبك لأبيك وتقديرك لذكراه، كأنك لم تتسبب في كل تلك الكوارث التي قصمت ظهره! معذرة يا «آلين»! أنت الذي طلبت ذلك!

- وما الذي قررتموه أخيرًا؟

فأجابتني وعلى شفتيها بسمة الفوز:

- لقد أتممت الاتفاق على أن تبقى المكتبة لك مقابل أن تترك لهم حصيلة بيع الأثاث.

- وقمطر أمي؟

- أذنتُ لشقيقتك أن تحتفظ به؛ لأنه لا يناسب نظام بيتنا، ولكنك ستأخذ قمطر أبيك ومقعده الكبير.. والآن: هل تعلم إلى أين نحن ذاهبان؟

- كلا.

- إلى أحد المطاعم حيث نتناول عشاءنا على نغمات الأوركسترا.

وكانت تلك أحسن وأصوب فكرة وخير ما فعلت والدتك.

ولِلَّه ما أعجبه من يوم حافل بالمفاجآت! فما إن خرجنا من المصعد حتى قابلناك.

- هل تأتي معنا لتناول العشاء معًا يا «جان بول»؟

ولم يطل ترددك، فلقد جئت معنا في الحال إلى المطعم.

* * *

الفصل الثالث

لقيتُ أمك لأول مرة في مارس عام ١٩٣٩، واسمها وقت ذاك «أليس شافيرون»، وكان كلانا في الحادية والثلاثين بفارق شهر واحد بين عمرينا.

ولم يكن لربيع ذلك العام -بالنسبة لنا نحن أبناء ذلك الجيل- أي شبيه بين سائر فصول الأعوام التي مرت بنا، فقد جرفتنا عواصف الأحداث العالمية المثيرة والأزمة الدولية المستحكمة، وترك كل منا مدرسته وقريته ومصنعه إلى بقاع في الجمهورية بعيدة عن مسقط رأسه لم يحلم قط بأن يراها!

وكنت ضمن من شملتهم التعبئة العامة قبل ذلك ببضعة شهور «في خريف عام ١٩٣٨»، وأرسلونا لحماية الحدود من الغزو المرتقب، واعتقد الكثيرون منا أنهم يودعون أهليهم إلى غير عودة أو لقاء، أما أنا -وكنت أحمل رتبة الملازم في احتياطي المدفعية- فقد كلفوني بالسفر إلى «الفلاندرز»، وكان الطقس باردًا والأمطار الغزيرة قد أحالت كل الطرق إلى برك ومستنقعات، فكل ما كنا نلمسه أو نرتديه رطب موحل حتى سيارات النقل التي تكومنا فيها كغرارات

البطاطس وغرف الفنادق الخلفية الكئيبة التي كنا نضطر للتوقف فيها كلما خيم علينا الظلام، كل شيء كان يبعث على المرض!

وكنا نقابل في طريقنا آلافًا مؤلفة من المهاجرين: عجائز وكهولًا وسيدات في مقتبل العمر معهن أطفالهن، الجميع يحملون ما خف حمله وغلا ثمنه هربًا من الموت، يمضون لياليهم مفترشين الأوحال ملتحفين بالسماء، هم أكوام من اللحم الآدمي المذعور المقرور، ومئات الألوف من الأفواه الجائعة والبطون الفارغة، يتركون طابعهم المميز في كل قرية أو مدينة أو حقل يمرون به كأسراب الجراد الشره، بما تراه أينما أدرت بصرك من اضطراب شديد في سوق المعاملات والطعام والأخلاق!

وأخيرًا وصلت مع فرقتي الحدود البلجيكية، حيث انتهى بنا المطاف في قرية «هندكشوت».

وكنت أرى معالم الغضب واليأس المرير بادية على وجوه رفاقي الذين انتقلوا فجأة من حياة اللهو والترف والدعة إلى العيش في الخنادق وخلف الأسلاك الشائكة، على نقيض ما كنت أشعر به من السعادة الطاغية، والرضا العميق والاستسلام للنهاية السعيدة مهما حدث، بالرغم مما أحدثه تجنيدي المباغت من انقلاب خطير في نظام حياتي.

وكان قد مضى شهران على قبولي في وظيفة صغيرة في شركة التأمين، ولم أكن قد شغلت بعد تلك الغرفة الأنيقة التي تعرفها والتي لاحظت أن رفوف جدرانها مكدسة بالملفات والأضابير.

وثق بأني حينما أُلحقت بتلك المؤسسة الشامخة بشارع «لافيت»، ولم أكن قد تجاوزت الحادية والعشرين، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن أعمال المحاسبين الاكتواريين، ولم أحلم قط بأن أكون خبيرًا اكتواريًّا، فبعد أن حصلت على ليسانس الحقوق بدأت أدرس للدكتوراه في القانون، ثم إذا بي –وفي غمضة عين– وبسبب تلك الحوادث المؤسفة التي وقعت في ١٩٢٨ ألفيت نفسي مضطرًا للبحث عن عمل أكسب منه قوتي ويساعدني في الإنفاق على دراساتي.

ووكلوا إليَّ –بادئ الأمر– تأدية بعض الأعمال القضائية الخفيفة تحت إشراف ذوي المران والخبرة من رجال القانون، بالإضافة إلى دراسة تدريبية في ترتيب الأوراق في الملفات والدوسيهات وتبويبها وتنسيقها.

وبذلتُ أقصى جهدي في أن أثبت للجميع كفاءتي، وشمرت عن ساعدي وأفنيت نفسي وصحتي على حساب وقتي الذي كنت أدخره للدراسة، فحرمت نفسي جميع الراحات والعطلات والإجازات وسهرات المجتمع، مما أثقل كاهلي، ولكني لم أعبأ بذلك كثيرًا. ما كنت أكاد أنتهى من عملي في شارع «لافيت»، حتى أنطلق مباشرة إلى غرفتي في شارع «لابراديس» فأوصدها على نفسي، أو ربما ذهبت لحضور إحدى المحاضرات الأدبية أو الندوات الثقافية.

وقد لاحظ أبي شدة انزوائي وتحولي المستمر، فطلب من شقيقتي أن تسترعي نظري إلى ذلك، فقالت لي ذات يوم:

– أراك تعذب نفسك، وكأنك قد صممت على قتل نفسك!

بيد أن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا، وإن كان فيه شيء من الحقيقة! لم أيأس قط، بل كنت أهفو إلى تطهير نفسي والتكفير عن ذنوبي؛ وبمعنى أكثر وضوحًا، كنت أعتبر روحي مدينة بالوجود لأبي، وكان العمل الشاق المستمر وسيلتي التي اهتديت إليها للوفاء ببعض ديوني له..

وحين تقرر ترقيتي إلى منصب قانوني كبير -ولم أتجاوز الخامسة والعشرين- رفضت تلك الترقية في عناد، وطلبت نقلي إلى فرع المحاسبين بوظيفة كاتب بسيط؛ لأتمرن على الآلة الإلكترونية الحاسبة، ولا تدهش يا ولدي -كنت أجد لذة عميقة تغمر مشاعري كلما أهنت نفسي وأذللتها، ولم أكن وقتئذ ماهرًا في الرياضيات والمعادلات التي لم أعرها أهمية من قبل في أثناء انكبابي على دراساتي القانونية، وكان عليَّ أن أهيئ نفسي لعالم الرموز والأرقام؛ لأكون مثل تلك الآلة الصامتة التي لا تخطئ ولا تكل من العمل ليل نهار!

وكانت غاية راحتي وسكينة نفسي وسعادتها كلما حججت إلى قصر «ماجالي» في «لوفيسينيه»، وسعدت بالنظر في عيني أبي ووجهه الحبيب إلى قلبي كل أحد؛ لأقضي معه لحظات قصارًا، وما كنت أتخلف قط عن موعدي، على نقيض شقيقتي وزوجها اللذين كانا نادرًا ما يحضران.

وهكذا.. كنت في عام ١٩٣٨ -أعد نفسي لدخول مسابقة الدكتوراه، عاكفًا آن ذاك على إعداد المراجع والمذكرات، بالإضافة إلى أني كنت أقوم في مكتبي بعمل جميع زملائي الذين قاموا بالإجازات الصيفية!

وعندما بدت نذر الحرب في الجو السياسي، وبدأت كل الدول تتأهب وتعد نفسها لذلك، تلقيت أمرًا بارتداء الزي العسكري والانخراط في سلك التدريب فورًا.

كانت صدمة عنيفة قلبت مشروعات حياتي، رأسًا على عقب، فبعد عشرة أعوام من الكفاح والعمل الكبير المتواصل الذي كنت قاب قوسين أو أدنى منه لاقتناص مستقبل مشرق مشرف يرفع رأس عائلتي، وأحقق فيه الطموح المتوثب في أعماقي، وأجني فيه ثمرة تعبي أجد نفسي مرة أخرى وقد غدوت ضحية للزمن كورقة شجر يابسة تعبث بها رياح الخريف القاسية، وفي مكان ما من الأراضي المنخفضة حيث الوحل والقاذورات ورائحة البارود والموت!

وحتى هذه اللحظة، أستطيع أن أرى بيوت قريبة «هندكشوت» ذات الطابق الواحد، وسيول الأمطار الغزيرة تختلط مياهها بالأوساخ، وأسمع رنين طاسات الجعة النحاسية في الحانات، وضحكات الجنود السكاري ورائحة العرق مختلطة بدخان التبغ وعفن الخمور الرديئة، كل ذلك يملأ أذني وأنفي للآن!

وذات مساء وفي الرابعة، كنت أقف مع بعض الزملاء متشحًا بمعطف فضفاض من الجلد الواقي من الماء، فأقبل علينا أحد ضباط الجمارك مسرعًا وقد احمر وجهه ولمعت عيناه، أقبل يعدو وكأنه يطير فوق الأرض يكاد يتفجر من اللهفة والسرور، ويصرخ من أعماق قلبه:

- أبشروا يا أولاد، الحرب انتهت، ستعودون جميعًا إلى بلادكم!

كان يقهقه في جنون، كما لو أصابته لوثة، وكان وجهه مبتلًّا بماء المطر والدموع!

كانت اتفاقية ميونيخ قد وُقعت، وعدت حقًّا وبعد أيام قليلة إلى القصر المرمري في شارع «لافيت».

ولكن لم يكتب لهذه الاتفاقية أن تعيش طويلًا، ولم يكن هناك سلام كما ظن الناس، بل كانت خدعة من الخدع الكبرى وضحكًا على الذقون! وكان ذلك نصرًا لتجار الحرب والسلاح، ومضت كل جبهة تشحذ أنيابها وتستعد للموقعة الفاصلة تحت ستار كاذب من السلم، أما أنا فلم أكن أبالي كثيرًا، بل لا تدهش إذا صارحتك بأني كنت أرنو إلى الموت والتضحية بحياتي في سبيل الدفاع عن الوطن، حتى أكفر عن خطيئتي وآثامي، ولكني ما كدت أعود حتى التهبت كليتاي ولزمت الفراش في غرفتي بشارع «أوغسطين» طوال ديسمبر.. وبذل طبيبي جهدًا كبيرًا في إقناعي بضرورة السفر إلى «لوفيسينيه»؛ لأكون تحت رعاية والدي فترة العلاج، بيد أني ضربت بنصيحته عرض الحائط، وبقيت في مكاني أشغل وقتي في قراءة «مذكرات سالي»، كما أعدت قراءة «مذكرات الكاردينال رتيز» للمرة الثانية، وكان أبي قد أهداها لي من قبل.

وحين عدت لأستأنف عملي في يناير، كنت ممتقع الوجه ضعيف الأعصاب غير متزن الخطوات، ومع ذلك فقد صممت على مباشرة واجباتي، مما هال زملائي وروعهم، وأصروا جميعًا على ضرورة قيامي بإجازة مرضية.

وإذ كنتُ أحمل في نفسي ذكريات جميلة منذ الطفولة عن مقاطعة «جراسي» بساحل «الرفييرا» -حيث كان أبي نائبًا لحاكمها، فقد اشتد بي الحنين للعودة إلى زيارتها، فحملت حقيبة ثيابي وبها بعض الكتب التي تبحث في «تقدير الخطر بالنسبة لشركات التأمين»، وانطلقت بمفردي إلى مدينة «كان»، ثم نزلت في فندق «سوكيه»، وهو مكان جميل يشرف على المدينة ويطل على البحر، تحيط به أسوار عالية من أشجار السنط والكافور.

وكنت أقضي أكثر أوقاتي جالسًا إلى نافذة غرفتي، أتأمل القوارب البخارية ذات الألوان الزاهية تروح وتغدو في الميناء الكبير، وأتمعن في مياه البحر الزرقاء وأسطح البيوت القديمة المكسوة بالقرميد الأحمر حين تنعكس عليها أشعة الشمس الساطعة، وأتطلع في شغف إلى شرفات العمارات الشامخة القريبة وما يدور في ظلال غرفها من الداخل من مظاهر الحياة العائلية السعيدة.

وشعرت في يوم شديد الحرارة، شمسه ساطعة ملتهبة، بإغراء شديد نحو البحر فانطلقت للاستحمام، وكان ذلك خطأً كبيرًا مني؛ إذ أصابتني حمى شديدة في اليوم التالي، ولم أشعر بشيء، ونقلتني سيارة الإسعاف إلى مصحة ذات حديقة واسعة غناء.

وهناك، قابلت الممرضة «أليس شافيرون»، التي أصبحت فيما بعد زوجة لي ووالدتك!

وإنني حينما أصف لك تلك الحقبة من حياتي تفصيلًا، إنما أقصد بذلك أن تتبين عن جلاء ويقين ظروفي وقت ذاك. كنت في حالة نفسية

لا أحسد عليها، وحالتي الصحية في غاية السوء بين الحياة والموت، كذلك كان العالم كله في مثل حالتي: شيخ مريض تنهبه الخلافات والأمراض والأحقاد، يجلس على برميل من البارود، ويشهد فترة سلام قلق مهدد بالحرب والفناء، ويحسن أيضًا أن أعترف لك بأني لم أكن خلال الأعوام العشرة السابقة قد تعلقت عاطفيًّا بأي أنثى؛ لأسباب سوف تعرفها فيما بعد..

ولا أكاد أذكر إلَّا القليل النادر جدًّا عن أيامي الأولى في تلك المصحة، سوى أني كنت في حالة هذيان دائم، أشهد خيالات كثيرة وأحلم أحلامًا مزعجة، كنت أعاني مرضًا خطيرًا، علمت فيما بعد أنه التهاب رئوي حاد، كاد يوردني حتفي، ولم يكن قد تم اكتشاف البنسلين أو مركباته في ذلك الحين!

وكانت بالمصحة ممرضات ذوات كفاية يتناوبن الخدمة ليل نهار، ويقمن بواجباتهم خير قيام.

بيد أني كنت لا أميل إلى رئيستهن التي كانت تتحدث بلكنة روسية، وأظن أنها كانت إحدى المهاجرات الروسيات. وأيضًا لتكلفها الظاهر في ملاطفتها للمرضى. أما الثانية وكانت من بنات ذلك الإقليم، وهي عانس قصيرة الساقين تنبعث منها رائحة زيت الخروع، وفي الخمسين من عمرها، فكنت أنفر منها بالغريزة برغم أنها كانت تحدثني كما كانت تفعل جدتي، وتبالغ في ترفقها بي وهي تضعني في فراشي، وكأني «فازة» ثمينة من الكريستال!

أما أمك فكانت أجملهن وجهًا وأرشقهن قوامًا وأكثرهن جاذبية،

كما تراها اليوم، وكما ستراها إلى ما شاء الله، لم ولن تؤثر فيها السنون والأعوام ما عدا خفة في الحركة كانت تمتاز بها وقت ذاك، لم يكن مبعثها رعونة أو طيشًا، بل أكبر الظن، حيوية متدفقة مصحوبة بكثير من الإغراء والرغبة في الاستقرار العائلي الذي كان ينقصها في ذلك الحين!

أو لعلها كانت هي الأخرى تعاني ما كنت أعانيه، وتدرك أنا نعيش فترة ترقب وانتظار صدور الحكم بالإعدام على الدنيا بأسرها؟

رأيتها إذَنْ لأول مرة خيالًا أبيض بين ضباب الحمى، وسمعت صوتها قبل أن أميز لها صورة واضحة المعالم.

كذلك هي، حينما وقع بصرها عليَّ، لم أكن إلَّا مجموعة من العظام، شبحًا هزيلًا يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه من شدة الحمى ويغطي جسمه العرق الغزير، مجرد بائس ساقته المقادير مثل باقي المرضى إلى تلك المصحة، إذا امتد بي حبل الحياة وعشت، فمرحبًا وألف سلامة. وإن مت، قيدت اسمي في سجل الوفيات، وأبدلت أغطية فراشي لمريض يأتي مكاني في الغد، ولكنها- برغم ذلك- وهو ما عجبت له فيما بعد - كانت تخصني بالكثير من العناية والرعاية، حتى قبل أن تتوثق صلاتنا أو تعرف عني شيئًا!

كذلك أحسست بدوري -كما ذكرت لك- بميل غريب نحوها، لم أشعر به تجاه زميلاتها الباقيات.

وأرجو ألَّا تتسرع وتسيئ الظن فتحسب ذلك حبًّا، فنحن لم نتبادل الحب قط في يوم ما، بل كانت صداقة توطدت أواصرها، شبيهة بذلك

النوع الذي ينمو بين جنديين في عمر متقارب يعيشان في خندق واحد بالخطوط الأمامية بميدان القتال ويتوقعان الموت في أي لحظة، الأمر الذي يضطرهما -بحكم الظروف- إلى رفع كل تكليف بينهما.

ولا أزال أذكر أول عبارة سمعتها منها:

- لقد سمح لك الطبيب اليوم بقليل من حساء الخضراوات، وكعكة ثم بعض المربى. فهل تشعر بالجوع؟

ولا أخفي عنك أنه قد ضايقني منها حيويتها الدافقة، فكانت لا تستقر في مكان، تنجز عشرات الأشياء في وقت واحد!

واستطردت تقول وهي ترمقني بعينيها الضاحكتين وأنا أتناول الطعام:

- ألك أصدقاء أو أقارب هنا في «الرفييرا»؟

- لا أعرف أحدًا بالمرة.

- وفي «باريس»؟ ألست مقيمًا «بباريس»؟

- بلى. ومع ذلك فلا أحد لي هناك، ليس لي إلَّا أبواي في «لوفيسينيه»!

- أتعيش معهما؟

فهززت رأسي نفيًا.

- سيتاح لك غدًا أو بعد غد أن تكتب لهما شيئًا.

- أشكركِ.

ولم أعرف شيئًا عن حياتها إلَّا بعد فترة من الوقت، فقد اعتادت

أن تحضر لغرفتي وتجلس معي كلما سنحت لها فرصة فراغ، وتترك الباب مفتوحًا حتى تستطيع أن تسمع صوت الجرس الخافت، الذي جعلوه خافتًا حتى لا يزعج أعصاب المرضى أو يوقظ النائمين، وكان ذلك الجرس يعمل باستمرار، ودائمًا يقطع علينا حديثنا، فتهب واقفة، وهي تقول ضاحكة:

- إنهم لا يستطيعون صبرًا، يُخيَّلُ إليك أنهم في آخر أنفاسهم!

أو تقول مثلًا: «هل رأيت؟ إنه رقم ١٧ يطلب الحقنة!».

واستطعت -في خلال ثلاثة أيام- أن أحفظ أسماء كل مرضى الطابق الذي أقيم فيه، من الجنسين دون حاجة لأن أراهم، فقد كانت تحدثني دوامًا عن كل فرد منهم وعن مرضه وطباعه.

وفوجئت بوفاة أحدهم في إحدى الليالي، وكان مريضًا بمرض عياء، ولم أستطع النوم بسبب الخطوات المتلصصة والهمس الدائر في الممرات ونداءات التليفون، ثم حركات عجلات النقالة، وكنت قد لمحت القس وهو يمر ببابي في الليلة السابقة يوسع الخُطى، وكأنه في عجلة من أمره.

وكانت «أليس شافيرون» ممرضة السهرة ذلك المساء، فلما أقبلت لزيارتي في السابعة صباحًا، كان وجهها نضرًا متألقًا، وابتسامتها رائعة ككل صباح!

- هل سمعت شيئًا؟

- أجل.

– إنه سعيد الحظ؛ فقد أراحه الموت من آلامه التي تفتت الأكباد، ولا يغيظني إلَّا جحود أولاده الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء زيارته إلَّا مرة واحدة منذ ثلاثة أسابيع! ذلك برغم أن إحدى بناته متزوجة وتقيم في «نيس»، وابنه يفتتح جراجًا للسيارات في «جراسي» نفسها، إنني أعرف كل شيء عنه، فهو لاجئ إيطالي، جاء لهذه المدينة جائعًا مفلسًا وبدأ حياته في أعمال البناء، أما الآن فهو تارك لهم ثروة ضخمة يسيل لها اللعاب! وسوف تراهم حينما يسمعون بوفاته يهرعون نحو جثته يتباكون ويندبونه بالموسيقى وأعذب الألحان!

ورمقتني بعينيها الباسمتين، ثم أضافت ضاحكة:

– هل أزعجتك رؤية الموت؟

– كلا.

– إنه صدمة لذوي الأعصاب الضعيفة من المرضى، مما يجعلنا مضطرين إلى التزام الهدوء وعدم إحداث أي صوت أو حركة ما أمكننا.

وسألتها: «وأين هو الآن؟».

– في الطابق السفلي لدينا غرفة خاصة بالموتى في البدروم.

– هل تعملين في التمريض منذ أمد طويل؟

– حصلت على الدبلوم منذ أعوام ثمانية، ولكني الآن في مثل عمرك!

– وكيف حدستِ عمري؟

- مكتوب على تذكرة سريرك، أنت تكبرني بشهر وثلاثة أيام!

وكان طقس الظهيرة ساخنًا، فتركت نافذة غرفتي مفتوحة، واستطعت أن أرى من خلالها قمم أشجار الكافور العالية وزرقة السماء الصافية، ولم أكن قادرًا على القراءة أو تأدية أي عمل سوى انتظار زيارة الطبيب مرتين في اليوم بعد تنظيف الغرفة، وتنظيفي أنا أيضًا، وترقبي مواعيد الطعام بفروغ الصبر.

ولعل فترة «تواليت الصباح» كانت أحلك لحظات حياتي، محنة حقيقية أجتاز فيها حلقات من الخزي والخجل العميق. ما إن تنتهي الممرضة من أن تستبدل بملابسي أخرى جميلة الرائحة، بعد أن تغسل جسمي بالماء الدافئ والصابون، وبعض الكولونيا، ثم تضعني وسط الأغطية الجافة الجديدة، حتى أتنهد في ارتياح شديد، وأشعر كأني قد ولدت من جديد!

وكنت قد أرسلت بطاقة لأبي وأمي أصف فيها سروري من رحلتي الجميلة، دون أن أشير لمرضي، وكانت «أليس شافيرون» تذهب إلى فندقي، وتحمل لي الخطابات التي ترد باسمي إلى المصحة.

ولم يدر بخلد أحد منا أننا سنرتبط معًا بذلك الرباط الأبدي، بل أكاد أقسم أن أحدنا لم يكن ينظر للآخر إلَّا كما ينظر الإنسان إلى رفيق له في السفر في باخرة أو قطار أو في حجرة انتظار!

ولم أكن قد عرفت من أمرها شيئًا بعد، بل حتى حين عرفت لم يكن ذلك دفعة واحدة، بل كان قليل منه في مدينة «كان» بالمصحة، ثم خلال أيام نقاهتي، وأخيرًا خلال فترة زواجنا.

كان أبو والدتك «نورماندیا» ممن يحملون اسم غليوم، ويزعم أنه ينحدر من سلالة «وليم الفاتح»، ولد في «فيكامب» بشارع «ديثرثيات»، من أسرة متوسطة الحال، حيث كان أبوه يعمل حارسًا لعنابر تخزين الخمور.

وكان رجلًا ذكيًّا منذ طفولته، تفوق على أقرانه مما شجعه بفضل المساعدات المادية التي قدمها إليه أصحاب المصانع على أن يواصل دراساته، وكان النجاح حليفه من مدرسة لأخرى حتى حصل على البكالوريس في التاريخ، واشتغل مدرسًا في الليسيه.

ولم تولد أمك في «نيس»، بل في «بورجي»، حيث عمل أبوها في بدء حياته، وحين كانت في الرابعة من عمرها، نقلوه إلى «الرفييرا» – ولا تضحك إذا ذكرت لك أن أبي– في تلك الفترة بالذات، كان حاكمًا عامًا لمقاطعة «لاروشيل».

وعندما ضاهينا الأقوات معًا: اكتشفنا أننا كنا نعيش في «الرفييرا» –وكلانا بين الخامسة والسادسة– لا يبعد أحدنا عن الآخر بأكثر من أميال قليلة: هي في «نيس»، وأنا في «جراسي». وقد مكثت هي أما نحن فقد رحلنا.

أتذكر يوم أن كنت معنا في رحلة بالسيارة، ومررنا ببيت أحمر قديم عريض الوجهة متعدد الغرف والطوابق، وتبادلت أنا وأمك النظرات؟ ذلك هو بيتها الذي ولدت فيه، وما زالت جدتك به وقد أمست عجوزًا دردبيسًا، وكانت قد أشارت لي عليه في مرة سابقة، أنه أحد البيوت ذات الطراز الإيطالي القديم التي تزخر بها الأحياء

القديمة في المدينة فيما بين ميدان «مسينا» والميناء الكبير، وإذا مررت بتلك البيوت في الظهيرة حسبتها من نوافذها المغلقة مهجورة خالية من الناس، وما أن يحل المساء حتى تلفظ ما في بطونها وتطن كل غرفه بالآدميين كخلايا النحل، ثم ينتشروا على أعتاب البيوت ويجلسوا في أركان الشوارع يزحمون أرصفتها حتى ساعات متأخرة من الليل!

وهذه الجدة: هل تذكرها، وقد زارتنا منذ عدة سنوات قبل أن يقعدها المرض؟

كانت في شبابها أنموذجًا رائعًا في الجمال تحترف بيع السمك فوق عربة يد تدفعها في ذلك الحي الشعبي من مدينة «فيكامب»، فهل تراك قد أفزعتك هذه الحقيقة التي قد تضيء لك الطريق في فهم والدتك؟

كانت جدتك تكافح في سبيل العيش، بعد أن تلقت شذرات من العلم لا تسمن ولا تغني من جوع، ثم أصبحت ذات يوم زوجة للمدرس «شافيرون»، الذي ينحدر من «غليوم» سليل الإمبراطور «وليم الفاتح» الذي دوخ أوروبا!

وكانت الجيرة كلها تحسدها على ذلك، وقد اكتسب زوجها مهابة وجلالًا، يرمقونه بكثير من الاحترام وهم يستوقفونه في الطريق ليقرأ لأحدهم خطابًا أو يستكتبه آخر رسالة له، أو ينتدبوه لإجراء مصالحة أو فض نزاع أو مشاجرة..

ولم يسعدني الحظ برؤية مسيو شافيرون قط، إذ كان قد فاجأته نوبة قلبية قضت عليه قبل أن أذهب إلى مدينة «كان» ببضعة أعوام،

لكني سمعت الثناء العاطر عليه ممن عرفوا فضله وعلمه، كذلك شاهدت مجموعة من صوره الشمسية، كان يبدو فيها متجهمًا عابس الوجه ينظر من تحت أنفه في كبرياء وأنفة واستعلاء.

ويُخيل إليَّ أنه لم يكن موفقًا في زيجته من بائعة السمك الفاتنة، وخاصة بعد أن صار أبًا لأربعة أطفال، كانت أمك صغراهن، وتضاعفت نفقاته ولم يكن له دخل سوى راتبه المحدود، لا يكفي الحياة في المستوى اللائق بمركزه أمام تلامذته، مع المحافظة على مكانة الأسرة التي انحدر منها، ويقينًا، كان جيرانه الفقراء الذين ينامون على الطوى أسعد منه حالًا مع صخبهم المتواصل ومشاجراتهم التي لا تنتهي؛ لأنهم اعتادوا ذلك النمط من الحياة المتقشفة، لا يشكون ولا يتبرمون، بل كانوا راضين قانعين؟

وكل واحد من أبنائه الأربعة قد شق طريقًا يختلف عن الآخر: أكبرهم «أميل» انخرط في البحرية وهو في السابعة عشرة، ثم تركها بعد خمسة أعوام إلى «مدغشقر» حيث انقطعت خطاباته عنا، ولم نسمع عنه إلَّا ما حمله بعض الموظفين العائدين من أنه قد تزوج إحدى بنات الجزيرة وأنجب منها ثمانية أو عشرة من الأولاد.

وأمك لم تذكره قط أمامك، حتى لا تحتذيه مثالًا.

أما «جان» -الابنة الكبرى- فقد تزوجت بدالًا إيطاليًّا كان يفتتح محلًّا في «غتيبي»، ثم أفلس، فأغلق أبوابه ورحل معها إلى الجزائر، وهناك تشاجرا، فحصلت على الطلاق منه، ثم تزوجت إنجليزيًّا وما زالت تقيم معه في «ديفونشير».

وتليها – «لويزا»– التي دخلت الدير.

وكانت أمك قد أنهت دراستها واجتازت امتحان الكفاءة «البوشو»، والتحقت وهي في السابعة عشرة عاملة على الآلة الكاتبة في إحدى وكالات التصدير، ولكنها قررت فجأة وبعد عدة شهور أن تغير مجرى حياتها وتدرس التمريض، وإذ هي التي بقيت دون إخواتها في الدار، فقد وجدت من والديها ارتياحًا وترحيبًا وتشجيعًا على مواصلة الدرس والتحصيل.

ولست أدري لماذا تركت فجأة عملها الكتابي المريح؟ ولكني كلما سألتها عن ذلك احمر وجهها، وقالت في ضيق:

– كنت وقتئذ إوزة حمقاء، رأسي مشحون بالأحلام السخيفة، دعنا لا نذكر ذلك الماضي!

مما يجعلني أوقن أن ثمة أشياء خطيرة قد حدثت لها، وهي لا تحب أن تستعيد ذكرياتها.

وعندما حصلت على دبلوم التمريض رفضت أن تعمل في «نيس»، وذهبت لتعمل في مستشفى «باريس»، ومعها توصية من بعض الأصدقاء إلى الأستاذ الكبير (ب) أعظم أطباء القلب، والذي لا تزال كتبه تدرس في جميع أنحاء العالم، وتتحدث عنه الدنيا كأعجوبة الجيل برغم حداثة سنه.

وكانت أمك في الثانية والعشرين أكثر جمالًا وشبابًا مما هي الآن، وتتحدث بلكنة أهل الجنوب التي تشنف آذان الناس في «باريس»،

وكان هو في السادسة والأربعين -في مثل عمري الآن.

وهنا أتوقف قليلًا لأرجوك ألَّا تتسرع في إصدار حكمك عليه حتى تصل أنت لهذه السن، فإذا حسبت أن الإنسان يستطيع أن يسيطر على قلبه في الأربعين، فأنت واهم.

ومن اليسير أن نحدس ما حدث، وسوف تستطيع أن تفهمه بنفسك ذات يوم، فمما لا ريب فيه أن الأستاذ (ب) قد أغرم بها، ولولا مذهبه الكاثوليكي ووفاء قديم لزوجته -لسارع إلى طلاقها والزواج من «أليس شافيرون» ممرضته الحسناء.

أترى؟ هل كانت من جانبها تحبه؟ لست واثقًا من ذلك، ولكن من المؤكد أنها كانت تحمل له إعجابًا عميقًا، وتتفانى في الوفاء والإخلاص الشديد له.

وأمضت في المستشفى عامين كاملين، ولا يهمني أن أناقش كيف ومتى كانا يجتمعان في ذلك الجو المليء بالطلبة والمرضى والأطباء والزوار وغيرهم؟

ولعل مصادفات الزمن هي التي لعبت دورها الكبير فيما حدث بعد ذلك.

فقد كان للأستاذ الكبير طبيبة مساعدة تعاونه في أبحاثه داخل معمله الخاص في داره، سيدة مطلقة في الخامسة والثلاثين لم يشك مخلوق في أنها لشدة تفانيها وإخلاصها وحبها لعملها، تترك أستاذها حتى تموت، لكنها التقت بأرمل ثري كان يتردد على الأستاذ

للاستشارة والعلاج، فأعجب بها، ثم تزوجها.

ولم يكن ثمة مناص من أن تحل أمك محلها، وانتقلت للإقامة بشارع «ميرونسيل» حيث بيت الأستاذ وزوجته التي كانت مريضة بمرض غير قابل للشفاء، لم يقدر لها أكثر الأطباء تفاؤلًا أزيد من خمسة أعوام!

ولو مضت الحوادث في مجراها الطبيعي، لكانت أمك هي السيدة حرم الأستاذ (ب) حتى هذه اللحظة!

كان ذلك أمرًا مسلمًا به معروفًا للعامة قبل الخاصة، كذلك لجميع أصدقاء الأستاذ وزملائه وعارفيه، وأيضًا لزوجته التي لم يكن يشغل بالها سوى صحتها وأيامها المعدودات!

ولما كانت ظروف الأستاذ تضطره أغلب الأيام للسهر في معمله طول الليل، فقد أعد لمساعدته غرفة نوم في المبنى نفسه، حتى تكون قريبة منه توفر له ما يطلبه وتلبي نداءه في أي لحظة، وبمضي الأيام استولت أمك على مقاليد البيت وامتلكت جميع أعماله وشؤونه، وأصبحت سيدته الأولى.

وشهدت بداية عام ١٩٣٨ أمك وهي في الثلاثين من عمرها، مطمئنة تمامًا إلى مستقبلها الذي أرست قوائمه وثبتت دعائمه ثمانية أعوام كاملة بالعرق والدموع، وإذا بالأقدار تضحك منها ساخرة، وتقبل إحدى السيارات العامة مسرعة، فتصدم أستاذها وهو خارج من باب المستشفى الكبير، فتقتله على الفور!

ولست أدري ما الذي فعلته أمك عندما بلغها ذلك النبأ، وكل ما أعلمه أنها سارعت فحزمت حقائبها في التوِّ والساعة، وغادرت المدينة كلها إلى غير عودة، ودون أن تلقي نظرة على جثة الحبيب قبل أن يواروها التراب!

ولا بأس من أن تعلم أن مدام (ب) قد عاشت ست سنوات بعد ذلك، وآلت ثروة الأستاذ الضخمة إلى أقارب أرملته، «وتقدرون فتضحك الأقدار!».

* * *

وفي اللحظة التي كنت أخوض فيها الوحل في طريقي إلى «الفلاندرز»، كانت «أليس شافيرون» تحط رحالها في مدينة كان، حيث كانت هناك وظيفة شاغرة تنتظرها في المصحة.

ولم يكن في صوتها وهي تقص عليَّ تلك المرحلة الحاسمة من حياتها ما ينم عن أي أسف أو حزن، وكنت وقتئذ أجلس قريبًا من النافذة، حيث كانت تقف مستندة إلى إفريزها بثوبها الأبيض، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها، وأفلتت من شعرها بعض خصلات ناعمة خفيفة، كان النسيم الهادئ يداعبها في رقة فوق صفحة جبينها الوضاء.

كان صوتها خاليًا من أي أثر للانفعال أو التأثر، كما لو كانت تقرأ لي قصة امرأة أخرى في كتاب بين يديها، وهي تنظر إلى الحديقة تحتها في شرود، حيث كنت أسمع خطوات بعض المرضى يسيرون فوق حصى الممشى.

وفي اللحظة التي ختمت فيها قصتها، سمعنا نزيلة الغرفة ١٤ تدق الجرس، وكانت قد حضرت في الليلة السابقة لإجراء جراحة عاجلة، فابتسمت «أليس شافيرون» وهي تقول وكأنها قد استيقظت لتوها من حلم جميل:

– دنيا عجيبة! أليست كذلك؟

وبعد ذلك، بعد ذلك بأيام كثيرة جدًّا، كنت أسترجع في ذاكرتي تلك القصة بكل دقائقها وتفصيلاتها، وجعلت أديرها وأقلبها في رأسي مرات ومرات، ولم أشعر بأي غيرة أو مرارة في حلقي، فإذا كانت قد ارتكبت خطأ فكلنا قد أخطأنا، وأنا بنفسي قد أخطأت ذات يوم، وكفى المرء نبلًا أن تعد معايبه!

ولقد حدثتها أنا أيضًا بما وقع مني، وهو ما سأسرده عليك بعد قليل، فأبدت عطفًا شديدًا على قضيتي. ومَن سمع مصيبة أخيه، هانت عليه مصيبته!

إذَنْ، كان كل منا يفهم صاحبه تمامًا، وكلانا ناضج رشيد، وحتى لو كنا نؤمن بالحب، فكنا نعلم أن ما بيننا لا يمكن أن يكون حبًّا، بل أصح وصف له أنه تفاهم، أرفع درجة من الصداقة العابرة.

ومع ذلك فمن الثابت أنه لم يخطر ببالنا فكرة الزواج قط وقت ذاك.

ولا شك أننا كنا نفكر معًا على نسق واحد.

فليس منا مَن هو مرتبط بخطبة أو زواج. والعالم أمامنا يرقص

على برميل بارود، لا يعلم أحد متى ينفجر، وإن كانت الدنيا كلها تؤمن بأن الانفجار محقق وأكيد وقريب! وعندئذ لن يُبقي ولن يذر! وإذا ما افترقنا، فهو فراق لا لقاء بعده، فأنا في طريقي لوحدتي في الجبهة الشمالية حيث أنا ملاق لا محالة حتفي، وإذَنْ فمهما يحدث بعد ذلك، فهو قليل الأهمية عديم الأثر!

ولعل ظروف مرضي وعجزي وقيامها عني بحكم طبيعة عملها بأدق الأشياء وأشد الخدمات حرجًا لي، قد سهل من تفاهمنا، وعجل في تقاربنا، وما كنت أشعر فيه بالخزي والخجل، صار أمرًا عاديًّا وطبيعيًّا دون أي تصنع أو تمثيل.

وعلى فكرة، كل تلك الأحداث لم تستغرق وقتًا طويلًا، بل حدثت في وقت وجيز جدًّا، إذ إن مدة إقامتي في المصحة لم تتجاوز ثلاثة أسابيع.

ومع ذلك فقد كان يُخيَّل إليَّ كأني أقمت معها جزءًا كبيرًا من حياتي لكثرة الذكريات التي ثبتت صورها في قلبي، كل ركن ومقعد ونافذة وصوت في المستشفى، حتى رائحة الكافور التي كانت تختلط برائحة الجعة.

وكنت أتصور أحد الباعة هنالك بين تلك الطرق الضيقة التي تنحدر من التل الذي كانت تشرف عليه مصحتنا، فقد كنت أسمع طوال الليل أصوات البراميل وهي تتدحرج، بعضها ممتلئ، وبعضها فارغ، وصممت على أن أتبين حقيقة الأمر عندما أغادر المكان.. ولكني نسيت ذلك تمامًا مثلما نسيت أن أذهب لأتفرج بمدرسة البنات

القريبة منا، والتي كانت تنبعث منها تلك الضجة الحبيبة إلى النفس والصيحات الرنانة المرحة مرتين كل يوم في أوقات الفسح بانتظام.

وكان أحد المرضى -وهو كهل يتوكأ على عكاز ويرتدي منامة فوقها روب من الحرير ذو ياقة زرقاء أعارتها إياه إدارة المصحة- اعتاد كلما مر في الممشى أن يتمهل أمام باب غرفتي، فإذا كان الباب مواربًا، دفعه بطرف عصاه حتى ينفتح على مصراعيه، وعندئذ يقف على العتبة برهة طويلة ينظر إليَّ واجمًا صامتًا، ثم يهز رأسه وقد بدا عليه أسف عميق وينصرف!

وكنت أحسبه بادئ الأمر مخبولًا به مس من الجنون، أو على أقل تقدير لا يقوى على النطق.. ثم تبين لي بعد أن أوشكت مدة إقامتي أن تنتهي أنه في كامل عقله، كما أنه صاحب صوت موسيقي عظيم، ويعمل بالأوبرا «تينور»، وكان يقيم منذ ثمانية شهور لإجراء عدة جراحات متتالية، ولم أسمع صوته إلَّا حين كنت أحزم حقائبي فقد قال لي وهو يقف بباب غرفتي بصوته العريض:

- أتمنى لك حظًّا سعيدًا أيها الشاب!

ثم هز رأسه بطريقته الخاصة، ومضى!

وكانت أمك تستأجر شقة مفروشة تتكون من غرفة للنوم وأخرى للجلوس، ملحق بها مطبخ وحمام في الطابق الأول في منزل على قمة ميدان «القومندان ماريا» وفي واجهة إحدى الصيدليات.

وكتبت لأبوايَّ بضعة سطور، مشيرًا لمرضي، مهوِّنًا الأمر ما

استطعت حتى لا أسبب لهما قلقًا أو انزعاجًا، كما أرسلت خطابًا لشركة التأمين التي سمحت لي بإجازة إضافية ونصحتني بأن أعتني بصحتي، وعدت إلى غرفتي بفندق «سوكيه».

وكانت الزهور قد أينعت وازدانت بها الحديقة التي كانت تبدو كبساط سندسي أخضر جميل، وأتاح لنا الجو الدافئ الجميل أن نجلس معًا في الهواء الطلق لتناول الغداء، إذ كان عيد الفصح على الأبواب، وبدأت القرية تمتلئ بوفود الزائرين ويزدحم بهم مشرب الفندق وشرفته.

ومضى شهر كامل، ثلاثون يومًا دون أن أُقبِّل والدتك أو يخطر ذلك ببالي، وكنا نتقابل في أوقات فراغها ونذهب للسينما وهو أمر لم أفعله مع امرأة، منذ كنت في التاسعة عشرة أو ننطلق معًا إلى جزيرة «ليرين»، فنمشي جنبًا إلى جنب بين أطلال قلعتها القديمة وتحت ظلال أشجار السنديان والزيزفون، ثم نجلس في النهاية فوق صخرة عالية نتأمل أمواج البحر وهي تتعانق في سرور وجذل.

وربما خطرت الفكرة ببالي فعلًا، ولكني لم آخذها مأخذ الجد، وكنت أقول لنفسي: ولِمَ لا؟

ومما تطيب له نفسي أن أشعر الآن أنها كانت تفكر في الشيء نفسه. وإنما بطريقة أخرى.

إنها لا تموت فيَّ حبًّا، ذلك أمر مفروغ منه -ولكنها تألف الخروج والجلوس معي دليلًا على شعورها نحوي بالارتياح والود، وتضحي بأوقات راحاتها برغم كثرة مشاغلها وعملها المضني في سبيل قضائها

معي، وكنا نجد في ذلك تسلية وتسرية عن النفس وسعادة لا توصف بلقائنا.

وكانت ظروفها عسيرة ومعقدة.

فوالدها الذي كان أبوه عاملًا بسيطًا، كافح ليطفو على السطح، وأمسى في النهاية مدرسًا محترمًا ترمقه الأعين، كان يرجو أن يحذو وحيده حذوه ويصير طبيبًا أو محاميًا، لكن آماله قد خابت فيه «أقصد ذلك الفتى الذي هرب إلى «مدغشقر»، ولم يصب من العالم شيئًا»، كذلك شقيقتاها: لا شك في أنهما بذلا أكثر ما يستطيعان في سبيل الارتقاء، لكنهما فشلتا ما عدا زوجة البقال التي لم ترض بحياة الفقر، فطلقت ثم تزوجت الإنجليزي صاحب مزرعة في «ديفونشير».

وهي لم ترضَ أن تظل طول حياتها أسيرة مكتب ضيق تعمل على الآلة الكاتبة، وقد ورثت عن أبيها الطموح، فانطلقت بخطوات سريعة نحو تحقيق أكبر أماني العمر وأحلامه. وأوشكت أن تكون زوجة للأستاذ الكبير تتسلط عليها الأضواء، وتنحني لها الهامات تقبل أناملها، ولكن الزمن الساخر شاء أن يلعب معها لعبة الثعبان والسلم، فإذا بها تنحدر هابطة في عنف وقسوة. درجات كثيرة إلى القاع لتبدأ الكفاح من جديد!

وحينما لقيتني، لا شك أنها وضعتني في ميزان دقيق.

فأنا -وإن لم أكن إلَّا خبيرًا اكتواريًّا- مركزي محترم وأحمل شهادة عالية، وأمامي مستقبل باسم يبشر بالرقي العاجل والمنصب الرياسي الكبير.

وعلى أي حال، أستطيع أن أؤكد لك أنها حتى إبريل عام ١٩٣٩ لم تكن تفكر في أي شيء من ذلك.

وذات يوم -في إبريل عام ١٩٣٩- على حين كنا نأكل أطباقًا شهية من السمك المدخن، في حديقة فندق «سوكيه»، وكان على المائدة المجاورة عروسان تتشابك أيديهما في ود وصفاء -سمعت نفسي أقول فجأة:

- ما قولك فيما لو عقدنا زواجنا؟

وكانت المفاجأة بالنسبة لها شديدة غير متوقعة، فبهتت لحظة، وأصابتها رعدة قوية كما لو مسها تيار كهربي، ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة، وهتفت في جذل:

- يا لها من فكرة رائعة! ونسعد بالإقامة معًا إلى الأبد!

وظللنا في حديثنا الفكاهي المرح وتعليقاتنا الساخرة، حتى انتهينا من طعامنا، وأوصلتها حتى باب المصحة، فقد كانت نوبتها تبدأ من الثانية حتى العاشرة مساء. ثم عدت إلى غرفتي، واستغرقت في قراءة كتاب في الاجتماع، وتناولت عشائي في غرفتي.

وخرجت من الفندق في العاشرة، وفي العاشرة والربع تمامًا كانت قد وصلت شارع «القومندان ماريا»، وانتظرتها حتى أخرجت المفتاح من حقيبة يدها، وكادت تضعه في ثقب الباب، فبرزت لها من الظلام.

فقالت في هدوء: «أوه! أهذا أنت؟».

- شعرت بأني في حاجة لأن أتبادل معك حديثًا جديًّا، فأرجو أن

تسمحي لي بالدخول لحظة.

ولم تتردد، أو تصطنع موقفًا تمثيليًّا مسرحيًّا، بل أدارت المفتاح في القفل بحركة طبيعية وأعصاب هادئة، وحينما هممت بالدخول أسرعت تقول:

- نصف دقيقة، دعني أطمئن إلى نظافة المكان!

وسمعتها وهي تضغط على مفاتيح النور في كل الغرف، ثم وهي تلقي ببعض الثياب والملابس القطنية في صيوان.

- تستطيع الآن أن تدخل.

وكانت الشقة توحي لأول وهلة بأنها كانت تؤجر دائما لنسوة من طراز خاص: غرفة الجلوس بها أريكة قديمة متهالكة ومقعدان ومائدة وبوفيه طويل من طراز «هنري الثاني»، والجدران تغطيها صور ورسوم بعضها غير محتشم.

ولاحظت ما أصابني، فقالت موضحة:

- الساكنة قبلي كانت إحدى الراقصات في ملهى ليلي، وكانت مولعة بلصق صور الغلاف لبعض المجلات الخليعة على الجدران. أتشعر بالظمأ؟

- كلا.

- ولا أنا، وهذا أفضل، فلست أدخر إلَّا قليلًا من الشراب، ربما فسد مذاقه.

أكانت تعلم سبب زيارتي؟ يحتمل جدًّا.

قلت لها: «كنا نتحدث في أثناء تناولنا الغذاء في موضوع زواجنا».

وكنت أحاول أن أفتتح الموضوع بطريقة سهلة.

- ومنذ أن افترقنا، وأنا أفكر في الموضوع تفكيرًا جديًّا.

وكان ذلك حقًّا وصدقًا، فلم أستطع تركيز انتباهي في الكتاب الذي كنت أقرؤه.

- ولقد حضرت لأنبئك باختصار أني لم أكن هازلًا، وحيثما أدرت الفكرة في كل اتجاه لم أجد سببًا واحدًا يقف في طريق زواجنا، فنسعد ونمرح كباقي المخلوقات.

فقال وهي لا تزال تضحك هازلة:» ولم لا، حقًّا؟».

- فكري فيما أقول! إن ما يعرفه كل منا عن صاحبه في الأيام القليلة الماضية، ليزيد كثيرًا عما قد يعرفه أي خطيبين مضى على تعارفهما عام كامل.

وصمتُّ برهة ريثما التقط أنفاسي، ثم أردفت قائلًا:

- أنصتي إليَّ بربك، لن أكذب عليك أو أحاول خداعك فأمثل أمامك دور المحب المدنف المدله الذي يقدم قلبه فوق صينية من الذهب مثلما نقرأ في الروايات أو ترين في السينما، كذلك أنا لست أتوقع منكِ شيئًا من هذا القبيل.

وخالجني إحساس بأنها متوترة الأعصاب من طريقة ضحكها واستمرارها في سخريتها.

- زواج الفلاسفة إذَنْ؟

- بل رباط بين صديقين يحترم كل منهما الآخر، ويسعد بلقائه، ويهنأ بقربه، زوجان يتعاونان على المضي جنبًا إلى جنب بقية الطريق!

وعندئذٍ بدا عليها الجد والاهتمام.

- يسعدني أن أسمع ذلك يا «آلين»، وإني لجد شاكرة لك.

- لست ممن يهتمون بالجسد.

وقد أخبرتني فيما بعد. أنها ضحكت طويلًا لسماعها ذلك وخاصة اللهجة والطريقة اللتين أتبعتهما وجفول بصري حينما وقعت عيناي بالرغم مني على الصورة الكبرى الملصقة فوق الأريكة، فقد هبطتا فورًا إلى مواقع أقدامي خزيًا ورعبًا في حركة طفلية.

ولم يحدث بيننا ما يخدش الحياء تلك الليلة، أو في الليالي التالية طوال الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها في «الريفييرا».

وحين أقبلت تودعني في المحطة، لم أكن قد تلقيت منها جوابًا شافيًا.

- سنرى هل أحدنا يشعر بالوحشة والحنين للآخر بعد أن نفترق شهرًا كاملًا؟

ولم أكتب لها خطابًا كاملًا طول ذلك الشهر مكتفيًا ببطاقة يومية أشبه بنشرات الطقس كانت تحمل جملة واحدة.،

«اليوم الخامس: ما زلت مصرًّا».

«اليوم السادس: ما زلت مصرًّا».

وهكذا.. حتى التاسع والعشرين، أما في اليوم الثلاثين -وكان يوم

سبت- فقد ذهبت لاستقبالها في محطة «ليون»، ورافقتها إلى أفخم الفنادق بميدان «جراند أوغسطين»، حيث حجزت لها غرفة.. تعلو غرفتي.

وذهبنا في اليوم التالي إلى «لوفيسينيه»، بعد أن حذرتها سلفًا أنها لن تسمع من أمي حرفًا واحدًا، حتى لا تستاء أو تسيء فهمها.

وكان والدي في غاية الرقة واللطف، فهو هو الرجل الذي حنكته التجارب، وعرفنا عنه النبل والشهامة طوال حياته الماضية.

وعقدنا زواجًا مدنيًّا في قاعة مجلس المدينة، وقبل أن نعثر على شقة خالية للإيجار.

وحينما أُعلنت الحرب العالمية الثانية، كنا لا نزال نقيم في الفندق نفسه، وفي غرفتين متجاورتين هذه المرة، بينهما باب متوسط، جعلنا الغرفة الأولى للنوم، ورفعنا الفراش من الأخرى، وأعددناها لتكون غرفة جلوس.

ومرة أخرى ارتديت ملابسي العسكرية، وانطلقت للجبهة الأمامية، ولكني سعدتُ بمنديل حريري يلوح في الهواء فوق رصيف المحطة.

* * *

الفصل الرابع

عدت مرة أخرى إلى «هندكشوت». الوجوه القديمة نفسها والحانات نفسها حيث تراق أنهار من الجعة، وكان هناك أيضًا ضابط الحدود ذو الشعر الأصفر الذي سبق أن بشرنا بالسلام، ولم تكن «بلجيكا» قد دخلت الحرب بعد، ولم يكن مسموحًا لنا عبور الحدود ذات الألوان الأسود والأزرق والأحمر، والتي كان جنودنا يتكئون عليها للحديث مع بعض المارين.

ومضت الأيام والأسابيع في بطء السلحفاة على حساب أعصابنا المتوترة، وكان جيش العدو يرابط على الجهة الأخرى من خط «ماجينو». يتبادلون الدعايات مع قواتنا من خلال أجهزة الصوت المكبرة.

وحينما حصلت على إجازتي الثانية، وجدتُ أمك تنتظرني في محطة الشمال، ولاحظت قبل مغادرتي القطار أنها حامل. وكانت ترتدي معطفًا بني اللون تركت أزراره مفتوحة.

ويبدو أن دهشتي كانت واضحة على محياي، فبعد أن تبادلنا القبلات في صمت قصير، سألتني في لهفة في وسط الزحام وضجة المستقبلين والمودعين على الرصيف: «أغاضب أنت؟».

فضغطت على يدها التي كانت باردة كالثلج، ثم هززت رأسي.

وما كان من حقي أن أشعر بأي غضب أو دهشة أو استنكار، فالحمل ما هو إلَّا نتيجة طبيعية لكل زواج، وكان ينبغي أن أتوقع حدوثه، ومع ذلك فقد أذهلتني المفاجأة، وأحسست كأن ثمة شيئًا غامضًا لم أستطع تبينه ما فتئ يضرب مؤخرة رأسي وكأنه مطرقة قوية تقرع بابًا موصدًا.

«سوف يكون لي ابن».

أما لماذا يكون ابنًا وليس بنتًا؟ فذلك ما لم أعرفه!

وأمضيت أيام الإجازة الثلاثة في فندقنا بميدان «أوغسطين الأكبر»، قمت خلالها بزيارة لمؤسسة التأمين بشارع «لافيت»، أطمئن فيها على الأعمال التي كانت تمضي باطراد كالمعتاد داخل المكاتب في طريق سيرها المرسوم.

* * *

لم أكتب شيئًا أمس ولا أول أمس، برغم أني أغلقت على نفسي الباب معتكفًا ساعات طويلة في مكتبي أستعيد في نفسي ذكريات تلك الحقبة من حياتنا، محاولًا ما استطعت ترتيب الوقائع في هدوء، وكانت هناك حلقة مفقودة هي التي حالت دون ربط الحوادث بعضها ببعض، مما سبب لي ضيقًا شديدًا.

وكنت آمل في إزالة ذلك الضباب الكثيف الذي يغلف ذلك القسم من الذكريات قبل أن أسجله في رسالتي، ومع ذلك فقد مضى يومان،

وذهبت جهودي أدراج الرياح، فأعدت قراءة ما سبق أن كتبته في تلك الوريقات القليلة السابقة، وخاصة تلك التي تشير إلى الأسابيع القليلة التي قضيناها في مدينة «كان»، وخرجت من ذلك كله ناقمًا على نفسي.

* * *

واليوم وأنا أعود للكتابة يخيل إليَّ أن قبسًا من فهم وإدراك يتسلل إلى قلبي، فيلقي حلقات من نور لعلها تساعد في تفسير ما أصابني يوم ذاك على محطة سكة الشمال الحديدية.

سيكون لي ولد يأتي من بعدي ليحكم عليَّ، ويزنني بميزان الحق فيقول ما لي وما علي!

فأنا بنفسي حين كنت طفلًا ثم صبيًّا اعتدت أن أنظر إلى أبويَّ بمنظار الناقد الدقيق الحريص على إبراز السيئات والحسنات، مسجلًا في ذاكراتي الواعية أدق الملاحظات، ربما لم يكونا هما يلاحظانها، فمهما أُوتي الإنسان من وعي وذكاء فلن يستطيع أن ينظر في مرآة نفسه فينقدها تمامًا، فالقريب من الشيء لا يعرف أبعاده كلها، إنما الذي يستطيع أن يرى العيوب بجلاء هو الذي يراها من بعيد وبعد سنوات تمر!

وإنها قصة قديمة تتكرر كل جيل، الأبناء يرقبون الآباء، كما كان هؤلاء يراقبون الأجداد!

قرأت ذات مرة عبارة لأحد الكتاب: إن أبناءنا صورة منا، وأرواحنا تتحدث على ألسنتهم!

وأظنه يؤمن بقضية تناسخ الأرواح القديمة، ويعتقد أن أرواحنا تنتقل في مدى مائة عام، من الأب إلى الابن إلى الحفيد، تؤثر فيهم إلى أعماق نفوسهم، يظل الحفيد يذكر ما يقوله الأب عن الجد ويراه بعين الخيال يتحرك أمام بصره، حتى إذا ما صار الحفيد أبًا اندثرت ذكرى الجد واختفت بين طيات النسيان وأصبح أسطورة قديمة بين الحكايات والأساطير، وهكذا تمضي الأجيال موجة بعد موجة كأمواج البحر تأخذ الصاعدة من الذاهبة، وتعطي الصاعدة ما يجيء بعدها إلى آخر الزمان.

هل قرأت من بين دراستك في «الليسيه» -كما فعلت في أيامي- تلك القصيدة الرائعة التي خلد بها الشاعر «بيرانجيه» اسمه، والتي لا تزال محفورة في ذاكرتي عن تلك الجدة العجوز التي رأت نابليون حينما كانت بعد طفلة، وهي تحدث حفيدها عنه -الجيل الثالث، وكان الحفيد يتخيل أنه يرى الإمبراطور ممتطيًا صهوة جواده ممتشقًا سيفه؟

وحينما يكبر الحفيد الطفل وتموت الجدة الطيبة، تختفي تلك الصورة، ولا يعود البطل الفارسي إلَّا مجرد تابوت يرقد تحت قبة «الأنفاليد» يتحدث عنه التاريخ!

مائة عام وبعد ذلك تنمحي كل ذكرى عن الآباء والأجداد..

والمسؤول عن الإمساك بطرف أول خيط يا ولدي هو الابن!

سيكون لي إذَنْ ابن، سيتحدث عني لأولاده بما انطبع في ذهنه ذامًّا أو مادحًا.

وكانت أمك أيضًا من بين نقادي أو ربما قضاتي، ولكني أنا أيضًا -بدوري- كنت ولا أزال قاضيها، فنحن متساويان في الأخطاء، هي تعرف نقط ضعفي، وأنا أعرف نقط ضعفها، وبجانب ذلك لقد رأت جسمي العاري الضعيف فوق فراش مرضي بالمصحة.

وإني لأتساءل الآن دون أن أصل إلى إجابة حاسمة: هل كنت أتزوجها أو تتزوجني لو أن ظروفنا وقت ذاك قد تغيرت أو لم توجد أصلًا؟

* * *

كانت ولادتك في تلك الغرفة التي خصصناها لنومنا في فندق ميدان «أوغسطين الأكبر»، في الثانية صباحًا، ولقد لاقت الخادمة عناء كبيرًا في العثور على إحدى القابلات في تلك الساعة حتى تخرجك إلى النور، كلا بل يجدر بي أن أقول إلى الظلام! كانت «باريس» كلها في حالة إظلام تام لسبب الحرب التي استعر أوارها، ولم نكن نحارب وقتئذ في «هندكشوت»، بل انسحبنا بعد انهيار ذلك الخط المنيع «ماجينو»، وبدأ الناس في «باريس» وقد تملكهم الرعب يهاجرون منها زرافات ووحدانًا.

ولم أكن -بوصفي جنديًّا- بطلًا، وفي الوقت نفسه لم أكن جبانًا، فلقد أديت واجبي قدر جهدي وبذلت غاية طاقتي في القتال، ومع ذلك فقد اضطررت ذات يوم أن أترك مكاني في مقدمة رجالي وأتبعهم - وكان أغلبهم قد خلف سلاحه وراء ظهره- نجري هاربين ما استطاعت أقدامنا أن تحملنا إلى جنوب «نهر السين»، ثم من بعده إلى «اللوار»!

اختلط المذنبون بالجنود في فوضى ضاربة أطنابها: جموع حاشدة لا تعرف فيها الحابل من النابل، تبحث في يأس وفزع عن ملاذ لها من عشرات الآلاف من طائرات الأعداء التي كانت تصب علينا حممها، وتحصدنا على قرب شديد بمدافعها الرشاشة فوق رؤوسنا، وكأنها ترش أحد الحقول بقاتل للحشرات!

وكنتُ وقت ذاك أتوقع مولدك، ومع ذلك فلم أسمع به إلَّا بعد شهرين كاملين، حينما استطعت أن أحصل على ثياب مدنية في «أنجوليم» وتسللت عائدًا بمفردي متنكرًا إلى «باريس».

لم أقتل في الجبهة، ولم أجرح أو أقع في الأسر، كما حدث لأغلب جنودنا، بل عدتُ سليمًا معافى إلى مكتبي في شارع «لافيت»، ومضيت في عملي المعتاد مرة أخرى.

وكانت ثمة أماكن عدة شاغرة، وخاصة بين وظائف مجلس الإدارة التي كان يشغل معظمها اليهود، الذين فروا كالجرذان المرعوبين وغادروا «باريس» قبل أن يدخلها «هتلر» وجيوشه، ولجؤوا إلى المنطقة الحرة، وذهب بعضهم إلى إنجلترا أو أمريكا!

ووجدت نفسي كفرس الشطرنج أنطلق مدفوعًا للأمام، ووثبت درجتين مرة واحدة، وانتقلنا إلى شقة مفروشة بأحسن الأثاث وأفخم الرياش بحديقة ميدان «مونسترو» استوليت عليها بما يشبه الملكية، وكانت تخص أحد المديرين واسمه «ليفي»، هرب من «باريس» وذهب إلى «البرتغال» في انتظار دوره ليستقل باخرة إلى «نيويورك»، مفضلًا أن يحتل أحدنا شقته قبل أن يستولى عليها الألمان.

وظللنا نقيم بها حتى انتهت الحرب، وبعد أن انتهت بعام كامل؛ لأن «ليفي» لم يعد إلَّا في عام ١٩٤٦، وفي الحق كان ذلك أول مكان شببتَ فيه وأمضيتَ فيه طفولتك.

ولم تكن طفولة سهلة ميسرة بالنسبة لك يا ولدي، وكان ذلك أشد ما يزعجني..

وما فائدة هذه الأوراق إن لم أكن معك صريحًا؟

شهدنا تلك الأيام حرمانًا كاملًا من كثير من الضروريات، وانطلقت أمك تكد وتشقى وتنقب عن كميات إضافية من الطعام، كنا نخشى عليك أن تموت من سوء التغذية، أو تتجمد من شدة البرد والصقيع، فقد عدمت وسائل التدفئة، وصرنا نبيت في الظلام أغلب الليالي، لا يطمئن مخلوق على نفسه من الاعتقال أو التعذيب أو الموت رميًا بالرصاص! ينتزعون الآباء من بين أسرهم وذوي قرابتهم ثم يسوقون الأطفال والنساء إلى غرف الغاز حيث يعدمون أو لا يعرف مصيرهم أحد!

وكنت أرقبك وفي قلبي خوف عليك.. تنمو وتحبو في ذلك الجو الغريب المحيط بك والذي لا يخصنا، فتلك الصور على الجدران كلها لأسرة «ليفي» التي لا نعلم عنها شيئًا: أجداد وعمات وخالات وأبناء لا يمتون لنا بصلة أو علاقة، كنتُ أحمل لهم في أعماقي كرهًا شديدًا.

وكان الطابق الذي نشغله من الفخامة والروعة بحيث لم يكن في وسعي أن أدفع إيجاره لو كانت الظروف طبيعية. ثلاث غرف فسيحة مؤثثة تأثيثًا فاخرًا من القطع الثقيلة الثمينة والطنافس العجمية تغطي

كل شبر من الأرض الخشبية اللامعة، وغرفة الطعام التي تتسع لعشرين شخصًا.

- «حذار يا «جون بول»! لا تلوث هذا المقعد أنه لا يخصنا!».

وفي الحق، لم يكن في ذلك المسكن ما يخصنا سوى حاجاتك أنت يا بني، فقد كان من المتفق عليه أن نسلم كل شيء بالحالة التي تسلمناه عليها، فلم نبدل شيئًا أو نحركه من مكانه، حتى الأوراق التي كانت بأدراج المكتب لم ألمسها!

وكانت لدينا وصيفة «فرناند» هل تذكرها؟ لقد تركتنا بعد فترة من الوقت لتتزوج كهربيًّا.. كانت تمضي أغلب أوقات الأصيل معك جالسة على أريكة في إحدى الحدائق ترعاك بعينيها، فقد كانت أمك لكثرة مشاغلها في تلك الأيام لا تكاد تجد لحظة واحدة من الفراغ حتى تهتم بك.

هل تدهش لو أكدت لك أن هذه الأيام في حياة أمك كانت بالنسبة لها أيامًا ذهبية وأجمل فترات حياتها الزوجية؟

وما كنت أكاد أشعر بالحرب في غمار مشاغلي بشارع «لافيت»؛ إذ تضاعفت مسؤولياتنا لتلك الظروف الطارئة، وقلة الموظفين العاملين الذين نقص عددهم إلى الثلث!

وسوف تعجب إذا أدركت أن عمل الخبير الاكتواري في شركة التأمين قد ازداد أهمية وتعقيدًا بسبب الحرب، فقد كان علينا أن نعيد تنظيم كل أرقامنا وتقديراتنا لتساير حوادث القتل التي كانت تقترن

بجنايات السرقة كرهًا والهلاك جوعًا أو بردًا أو خوفًا وقلقًا بالسكتة القلبية أو نزيف المخ، وغيرها من أسباب الموت المفاجئ، بخلاف حوادث السلب والنهب والإتلاف والحرائق التي كانت تشب دوامًا في كل مكان دون أن نصل لمعرفة فاعل لها أو سبب معقول، بالإضافة إلى مئات الكوارث الأخرى التي لم يرد لها ذكر في بوالص التأمين القديمة لما قبل الحرب، وكل ذلك كنتُ عنه مسؤولًا، وأي خطأ في التقدير يسبب للشركة خسارة بلايين الفرنكات.

وكانت الحرب -بالنسبة لوالدتك- تعني شيئًا آخر أكثر أهمية، وما يشغل بال كل أم مسؤولة عن بيتها عادة، هو البحث عن طعام يمسك رمق الأسرة، ويرد عنها غائلة الجوع، وفي سبيل ذلك كانت تتحمل مشقات كبيرة في الانتقال إلى الريف والقرى المجاورة «لباريس» حيث تلقى هوانًا شديدًا في المساومة والشراء.

واكتشفت فجأة أنها كانت تمارس ولبضعة أسابيع دون علمي نشاطًا آخر يختلف في نوعه عن مجال البحث عن الطعام لنا.

فعلى أثر عودتي من عملي ذات مساء انحنيت عليك أطبع قبلة على جبينك الصغير، فلاحظتها تحدجني بنظرة حادة، كما لو كانت تريد أن تنقل لي رسالة سرية، وفي غفلة منك رفعت سبابتها إلى شفتيها محذرة حتى لا تشعر أنت بما يدور!

وبعد ذلك بلحظات انتحت بي ركنًا بعيدًا في غرفة الجلوس التي لم نكن نستعملها لافتقارها إلى وسائل التدفئة، ثم همست لي قائلة:

- ابتعد عن حجرة النوم الخضراء.

وكانت غرفة مهجورة خالية، لم نستعملها قط فما كان بي حاجة إذَنْ لدخولها، فحملقت فيها مشدوهًا، حتى أسمع منها تفسيرًا.

- بداخلها رجل وأرجو ألَّا يعرف «جان بول» عن ذلك شيئًا.

وشعرت بدوار شديد فتماسكت وأنا أقول:

- مَن هو؟

- إنسان يبحث عن مكان أمين يختبئ فيه لبضعة أيام.

واعتدنا بعد ذلك أن «نستضيف» عددًا من الناس بعضهم يمكث ليلة واحدة أو أسبوعًا بيننا، ولم أشاهدهم قط إلَّا حينما وقعت عيناي على أحدهم مصادفة، فسارع بإغلاق باب غرفته في وجهي.

- يحسن بك أن تجهل كل شيء عنهم، حتى إذا ما استجوبوك أنكرت صادقًا، وضميرك مرتاح!

- و«فرناند»؟

- لن تقول شيئًا! كل ما يهمها هو الحصول على المال. وأنا أدفعه لها بسخاء.

وكانت أمك تقوم برحلات كثيرة لم تحطني بها علمًا، وإني لأذكر أنك حين كنت في عامك الثالث، سألتني ذات مرة: «لماذا تكثر مامي من الغياب في هذه الأيام؟».

وكانت تخفي عني تحركاتها أحيانًا -لا لفقد ثقتها بي-، بل أنا أعلم يقينًا أنها كانت تحرص على أن تتجنب توريطي في أسرار قد تعرضني لو اندمجت فيها للرمي بالرصاص، كانت تهدف إلى التقليل

من الخسائر في الأسرة ما استطاعت، فلقد بدأ عهد الإرهاب. ونشط «الجستابو» في التعذيب والاستجواب، فأصبح الإنسان مهددًا في حياته وماله، لا يأمن أن يطل من نافذة أو يخرج من الباب!

ومع ذلك، كانت تلك المخاطر والأهوال أحب الأشياء إلى قلب أمك، فقد وجدت الميدان الذي هويه فؤادها.

ولذلك السبب قلت لك إن هذه الفترة ربما كانت من أسعد أيام عمرها في حياتها الزوجية.

فكل منا مهما كان مركزه في المجتمع وضيعًا كان أو رفيعًا، يتمنى أن تكون له أهمية في بعض النواحي، حتى يشعر بقيمته بين الناس، ويحقق بعض أحلامه وآماله! ألَّا ترى أن السبب الأكبر فيما يمر فيه العالم من اضطراب وقلق نفساني هو افتقارنا جميعًا إلى تحقيق ما يدعم خيالاتنا ويحقق أحلامنا ويعيد الثقة إلى نفوسنا؟ ما أحوجنا جميعًا إلى التجرد من عالمنا المادي القائم على المصالح الشخصية والبحث عن المثل العليا في عالم الروح!

قد تسأم من هذا الحديث الذي يبدو كأنه محاضرة فلسفية جامدة ثقيلة على نفسك، ولكني أذكر ذلك كي تفهم الكثير عن والدتك التي خاطرت بنفسها وجازفت بالتشويه والتعذيب والموت من أجل تحرير فرنسا من أعدائها في أشد الظروف قسوة ورعبًا.

ومنحوها أرفع الأوسمة عام ١٩٤٥، تقبلته في هدوء وبلا ضجة، واستحقته عن جدارة وإيمان.

ولكني فقدت زوجة، كما فقدتَ أنت أمًّا في غمرة تلك الأحداث.

معذرة يا ولدي إذ أذكر لك ذلك، ولكنها الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها، فلقد خرجنا من الحرب ونحن على طرفي نقيض، ولم تعد الحياة المنزلية وواجبات الأمومة تروق لها بعد ذلك النشاط الكبير والحماس العظيم، ويُخيل إليَّ أنها كرهت أن تحبس نفسها بين جدران أربعة.

لقد وقع كل منا في الخطأ نفسه، حينما تصورنا أن ذلك النوع من الصداقة يصلح أن يكون أساسًا كافيًا للحياة في عش واحد. وقعنا في ذلك الخطأ حين كنا في مدينة «كان» في جو مثير من المرح والأحلام.

ولست ألومها أو أحملها تبعة ما حدث. كذلك لن تستطيع هي أن تفعل ذلك أيضًا.

ثم أين هو ذلك الصديق الذي يدوم لك وللأبد؟

فالإنسان منا يبدأ حياته بأصدقاء الطفولة في المدرسة الابتدائية ولا يلبث حتى يتخذ آخرين جددًا في المدرسة الثانوية، سرعان ما يحل محلهم غيرهم في الجامعة. وهكذا يقفز في حياته عشرات وعشرات في أثناء حياته العملية الأولى، وفي متوسط العمر، ثم حينما يتقدم به السن نحو الشيخوخة.

تركب القطار من أول الخط، يصعد البعض ويهبط آخرون، ينطلقون في شتى الاتجاهات.. بعد أن يلوحوا لك بأيديهم مودعين وسرعان ما يبتلعهم الظلام!

ولا أعرف أحدًا –من بين مَن عرفت أو سمعت– احتفظ بنفس الأصدقاء لمدة عشرين أو ثلاثين عامًا، ولا أذكر أولئك الذين يتلاقون مصادفة كل عامين أو ثلاثة فيتصافحون في حرارة، ويتعانقون وهم يتبادلون ضرب الأيدي على الأذرع والأكتاف يستعيدون ذكريات الماضي البعيد السعيد.

ولو أن رجلًا مثلى وله مثل مواهبي وصفاتي منذ عشرة أعوام، لكان من المحتم أن يتغير ذوقه ومزاجه ويتطور في عاداته وطباعه خلال تلك الفترة من الزمان، وأنا نفسي قد تطورت أيضًا في هذه المدة، وغدوت شخصًا آخر يختلف تمامًا عن الأول، انطلق كل منهما في طريق آخر مخالف ولا شبه بينهما إطلاقًا.

وليس أطيب للقلب وأجمل للنفس من أن يتاح للإنسان أن يتقابل مع صديقه، في الوقت الذي يريد، ومتى يجب.. أما أن تلقاه أمامك وقتما وحيثما لا تتوقع أن يفاجئك في لحظات ضعفك وجبنك، فذلك ما لا يحبه مخلوق. فهل يمكن أن ينطبق ذلك على الصديق من الجنس الآخر؟ طالما فكرت في ذلك، وما زلت أفعل حتى هذه اللحظة، بالرغم من أني –منذ مأساة عام ١٩٢٨– لم أضع ذلك تحت التجربة والاختبار، ومع ذلك فأنا أؤمن بأن الحب عامل هام، لا يمكن الاستغناء عنه في تشييد وإقامة ذلك الصرح الشامخ، فهو يعني أن الزوجة أو الزوج يذوب ويفنى في النصف الآخر، ويصبحان فردًا واحدًا وجسمًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء.

وأجد نفسي مضطرًّا لأن أضيف هنا شيئًا إلى ما ذكرته عن أبي

وأمي، وهو ثقتي المطلقة في أن ما بينهما كان حبًّا جارفًا حقيقيًّا، إلى الحد الذي جعل أبي يمل الحياة بعد مماتها. بيد أنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت حتى أحدثك عن ذلك، فما زلنا في جيلنا أتحدث عن نفسي وعن والدتك خاصة ولم أكن أعتقد حينما بدأت، أني سأفيض في ذلك على غير ما توقعت مما يضطرني لأن أستمر حتى النهاية.

وأنا أجد -في صومعتي- ملاذًا في الابتعاد عمن لا أحب من الناس، وأجد فيها جنة أحلامي.

وأمك -بدورها- تجد ملاذًا في نشاطها الدائب.

وربما ظن أصدقاؤنا فيها الطموح، وإنها في الحق لكذلك، فلم يعد لديها طيارون إنجليز أو أعضاء للمقاومة السرية، تمد إليهم يد العون والمساعدة، ولم يعد لديها رسائل هامة أو قنابل تحملها في سلة الخضراوات، كذلك لم تكن لها موهبة الكتابة مثل شقيقتي؛ تحول إليها طاقتها المشحونة.

وكان أول ما حققته من أمانيها، هذه الشقة بشارع «ماكماهون» التي اشترت أثاثها الفاخر بنفسها، وأشرفت على تنسيق كل قطعة في أرجائها مع عمل الديكورات الفاخر، ثم استقبال الناس من ذوي الحيثية والمناصب الخطيرة، فهي لم تنس قط تلك الثكنات التي ترعرعت فيها وشهدت فيها طفولتها بمدينة «نيس»، أو أصل والديها المتواضع البسيط.

وهي لا تزال في طريقها للصعود نحو القمة، ولسوف يخيب أملها فيك إن لم تحذُ حذوها في ارتقاء السلم حينما يحين دورك أنت أيضًا.

وأرجو أن تضيف إلى ما ذكرت ذلك الفراء الثمين الذي اشترته أخيرًا، والذي يساوي وحده ثروة طائلة، والمعطف الأنيق الذي سبقه، وأول سيارة خاصة فرحت بها، وكذلك أول مرة دخلت فيها محلًّا للمجوهرات في زهو وكبرياء.

وربما تغير وجه التاريخ وصرنا أسعد حالًا، لو كان زواجنا عن حب، بدلًا من أن نعقد تلك الصفقة التجارية، أو زواج الفلاسفة كما سبق وأطلقتْ هي ذاتها عليه ذات يوم، عندئذ فقط كنت أشعر بأن لي شريكة العمر، وكنت تجد فيها الأم التي تفهمك.

سامحني يا ولدي، أنا مضطر لأن أذكر لك هذا، وأرجو ألَّا أكون قد أسأت إليك.

قبل أن أبدأ كتابتي هذا المساء، مضيت أعيد قراءة ما كتبت أخيرًا، فشعرت بالكثير من الإثم وعدم الارتياح، وكأني قد ارتكبت جرمًا، وأوشكت أن أمزق الأوراق كلها.

كنت أحاول -بلا ريب- أن أسجل انطباعات نفسي بين السطور لأزيح عبئًا ثقيلًا عن قلبي وضميري، وأكاد أشعر بأني أكتب لنفسي أكثر مما أكتب لك، وربما خطر لي -بمجرد أن أنتهى من رسالتي- أن أُلقي بها في الموقد طعمة للنيران.

أتراني فاعل ذلك؟ لسوف نرى.

وإن أمك لتبدو -رغم تجاوزها الثامنة والأربعين- أصغر من ذلك بكثير، «بفضل حيويتها وروحها المرحة وعينيها اللامعتين»، وهي

لا تزال موضع حسد وغيرة من جميع الشابات الصغيرات.

فهي ليست كغيرها من النساء، ممن يفقدن رشاقتهن بعد الزواج، بل إن جسمها يزداد حسنًا وجمالًا بمضي الأيام؛ ربما كان ذلك لأنها تنتقي أروع الثياب وأكثرها تناسقًا، أو ربما لأن السنين قد زادتها خبرة ومرانًا باختلاطها بالباريسيات اللائي رأين الكثير، وسمعن الكثير وتعلمن الكثير أيضًا..

وهي لا تختلف عن والدة صديقك «زابو» التي قد تجاوزت الأربعين بعدة أعوام، ومع ذلك فما زالت معبودة الملايين من عشاق فنها، الذين يرون فيها المثل الأعلى للرشاقة والجمال.

* * *

أصبح عيد الميلاد على الأبواب، والمدينة قائمة على قدم وساق، وكأنها قد أصيبت بالحمى، فأنوار النيون الملونة تضيء وجهات المتاجر الكبرى تظهر وتختفي، ثم تعود فتخطف الأعين في حلقات ورسوم رائعة تحمل الإعلانات التي تدعو الجماهير للإقبال على الشراء، وبدأت المسارح ودور السينما تقدم أقوى المسرحيات وأروع القصص، والناس من جميع الطبقات يكادون يطيرون من شدة اللهفة والسعادة، وازدانت نوافذ الدور بثوب قشيب من الضياء الباهر وسكانها يتأهبون للاحتفال بالليلة الخالدة.

وكان كل زملائي بالمكتب يتحدثون عن الهدايا وأين يقضون السهرة المرتقبة حتى الصباح، وكنت قد انتهيت بدوري من أعداد الإحصائيات عما نتوقع حدوثه من حوادث القتل والمصادمات

والحرائق والانتحار.

وسوف نحتفي بعيد الميلاد مثل باقي الناس، وسنقيم شجرة الميلاد، شجرة متواضعة مما يناسب الكبار. فقد كبرتَ ولم تعد طفلًا تستهويه المصابيح الكهربية الملونة ولا القطر الكهربية.

وكنت قد طلبت مني قاربًا بخاريًّا، وسوف أشتريه لك، وقد مررتُ فعلًا عقب خروجي من عملي هذا الأصيل بالمتجر الخاص، ودفعت ثمنه مقدمًا، وسيكون تحت تصرفك في الرابع والعشرين من ديسمبر.

وسوف أقدم لوالدتك قرطًا من الماس يتفق طرازه مع عقدها الثمين.

وحين كنا في «لاروشيل» عام ١٩٢٨، كانت الدنيا بأسرها تحتفل بعيد الميلاد، ما عدا أسرة «لافرنسوا».

أما اليوم؛ فقد منحوني هديتي، هدية مؤسسة التأمين التي أعمل بها، ولم تكن في هذه المرة مظروفًا يحتوي على مبلغ من المال أو صندوقًا من السجائر غالي الثمن، بل اضطروني إلى تحرير إقرار كاذب مزور، حتى أحصل على تلك الهدية مما أفسد سروري بها.

وهل تُراني كنت أشعر بالسعادة والسرور لحصولي عليها لولا تلك المأساة أو السحابة التي تظلل الماضي البعيد؟

ربما.

كانت الساعة الثالثة حينما أخبروني بأن المدير العام يريد أن

يراني في مكتبه، وهو رجل مهم جدًّا، نخشاه جميعًا فبين يديه مصاير الآلاف من الموظفين والمفتشين، ويحتفظ دائمًا بأقراص التنترين في درج مكتبه، وفي جيوب سترته ومعطفه، فهو مهدد بالذبحة الصدرية في أي لحظة.

وحين يتناول طعامه في أرقى النوادي والمطاعم، أو يُدعى لبعض الحفلات أو السهرات الرسمية، لا يقدمون له إلَّا أبسط وأخف أنواع الأطعمة التي حددها له الأطباء، يتناول منها القليل جدًّا كأنه عصفور!

وربما كنت أنا الوحيد الذي يعرف لماذا يحتفظ بذلك الشارب الأنيق ذي الطرفين المفتولين والمرفوعين لأعلى، والذي يتحول سريعًا من الأسمر للأبيض؛ ذلك حتى يقصر المسافة بين أنفه وشفته العليا، ويخفي بهذه الطريقة رقة وطيبة في ملامحه، فمن دون ذلك الشارب «المهيب» الذي يرتعد لمرآة جميع مرؤوسيه. تراه شخصًا عاديًّا مثل عشرات الناس ممن تقابلهم في أي مكان.

- اجلس يا سيد «فرانسوا».

وتغطي جدران مكتبه لوحات زيتية، تمثل المديرين السابقين بالتوالي على حسب ترتيب وتواريخ وجودهم في مناصبهم، وحينما يذهب -ذات يوم- سوف يضيفون صورته في المكان المناسب.

وكانت أصابع يديه طويلة والجلد الذي يكسو اليدين به بقع سوداء لا تسر الناظرين.

وحدج أزرار سترتي بنظرة ذات معنى.. ثم قال:

- إذا لم أكن مخطئًا في ظني فأنت لم تتقلد بعد وسام «اللجيون دونور»!

فهززت رأسي.

حسنًا.. سوف نعوضك هذا التقصير فأنت جدير به، وسيكون اسمك -إذا ما صدق حدسي- ضمن قائمة مَن سيُنعم عليهم في العام الجديد، تلك هي هديتي إليك بمناسبة عيد الميلاد، فقد كنت أتناول منذ برهة وجيزة الغذاء مع وزير المالية الذي تبين أن لديه لحسن الحظ بعض الأوسمة والقلادات الباقية، وسألني: هل أعرف مَن يستحق شيئًا؟ وإذ كنا في الجامعة معًا، وثمة صلة قربى بعيدة بين زوجتينا، فلن تجد نفسك مضطرًا إلى اتخاذ الشكليات المعروفة المعتادة، وما عليك إلَّا أن تملأ هذا النموذج.

وأشار بسبابته إلى ورقة مطبوعة بها أمكنة خالية للأجوبة كانت على طرف مكتبه.

- أعدها لي فورًا، وتقبل تهنئتي الحارة!

وهو -بنفسه- يحمل نيشان الاستحقاق من طبقة فارس، فهل تُراه يستحقه بإخلاص؟ وهل هو يعتقد حقًّا أني أستحق ذلك الوسام عن جدارة دون باقي المواطنين الذين أدوا للوطن أجلَّ الخدمات وأكبر التضحيات؟ وهل يعتقد ذلك الوزير الأحمق الذي يرغب في بعثرة بعض الأوسمة التي بقيت في مكتبه ذلك أيضًا؟

إني لأتخيل ما حدث بالضبط في تلك المأدبة: الوزير على رأس

المائدة، والسيد المدير يجلس عن يمينه، ويبدو أن الأول قد أفرط قليلًا في أنواع الشراب حتى مال على المدير ضاحكًا وهو يقول:

- وعلى فكرة يا «هنري»، لا تدهش إذا أخبرتك أنه ما زالت لدينا بعض النياشين لم توزع بعد، فقد تبين أننا قترنا قليلًا فيما يبدو ونحن نكتب القوائم والكشوف.. أتريد شيئًا منها؟

ويطرق المدير برأسه قليلًا يستعيد في ذاكرته أسماء مرؤوسيه ولسبب ما يتذكرني، فيرفع رأسه وهو يقول:

- أجل، خبيرنا الاكتواري، سوف يسعده كثيرًا لو حصل على «اللجيون دونور».

ترى؟ لو كان قد ذكر له أسمى.. أفما كان الوزير يقطب حاجبيه متسائلًا:

- هل هو أحد أقارب «فيليب لافرنسوا»؟

فقد كانا يبلغان عمرًا أتاح لهما أن يسمعا بذلك الحادث القديم، ولا أعني أنه يقف عقبة في سبيل تكريمي، فلم تكن لي -بذلك الموضوع- أي علاقة من الوجهة الرسمية.

ومع ذلك، فهأنذا أجد نفسي مرغمًا على التوقيع على إقرار مزور كاذب!

فمنذ أن أبى أحد الصحفيين قبول وسام «اللجيون دونور» الذي منحته إياه الدولة، ورفضه بإباء وشمم، وأعاده بطريقة غير مهذبة دلت على شدة احتقاره له، مما أحرج الحكومة ووضعها في مركز دقيق،

منذ ذلك الوقت –وقد مضى عليه عشرون عامًا– والدولة تشترط فيمن ترشحهم إحدى الجهات للحصول عليه، أن يقدم طلبًا موقعًا عليه منه، يؤكد فيه مبررات الاستحقاق.

وأنا لم يقتصر دوري على أني ملأت نموذجًا ووقعته بإمضائي فحسب للحصول على وسام لم يخطر قط ببالي أو أفكر فيه، بل استكتبوني إقرارًا بعدم سابقة مثولي أمام أي محكمة جنائية.

وليس في ذلك الأمر ما يعرضني للعقاب أو يوقعني تحت طائلة القانون، ومع ذلك، كان ذلك في نظري أنا شخصيًّا كذبًا وزورًا وبهتانًا، فقد كنت أستحق –وعن جدارة أيضًا– أن أحاكم ذات يوم أمام محكمة الجنايات!

ربما كان إيماني ضعيفًا، ومع ذلك فلا أملك إلَّا الشعور بالغبطة تغمر حنايا قلبي كلما سمعت أجراس الكنائس يتردد صداها.. والسعادة تهز كياني حينما أرقب مواكب الكرنفال، والناس يرتدون الثياب التقليدية، ويرقصون ويرمحون، كذلك أشمخ بأنفي زهوًا وكبرياء، وأنفخ صدري عزة وقوة حين تقع عيناي على جنود الجمهورية في الاستعراض الكبير تهتز لهم الأرض، وهم يدقونها بأحذيتهم الثقيلة على أصوات الطبول وأنغام الموسيقي!

وطالما أرهفت أذني –صبيحة كل أحد– إلى نواقيس كنيسة «القديس فرديناند» في الجهة المقابلة من الميدان، وأشعر بما يشبه الغيرة وأنا أتطلع من النافذة فألمح جيراننا وقد تأبطوا أذرع نسائهم وأمسكوا بأيدي أطفالهم، الجميع في أبهى زينتهم وهم داخلون أو

خارجون من الكنيسة يلوح البِشر وعلامات الرضى على وجوههم.

فلست إذَنْ جامد الشعور بليد العاطفة، بل إن بين صدري ضميرًا لا يكف عن تذكيري بذلتي، ويؤرق نومي، ومع ذلك فلا أستطيع أن أرفض ذلك الوسام من أجل أمك، حتى ترفع رأسها، ومن أجلك أنت أيضًا يا ولدي.

ولعلك لم تسمع بعد أننا سنقيم بعد أيام قليلة وفي عيد رأس السنة حفل استقبال كبيرًا، سوف يحضره نحو اثني عشر رجلًا من كبار القوم والشخصيات اللامعة لمناسبة منحي ذلك الوسام، وسترى «ديزيريه» كبير الخدم بمطعم «بوتيل وشابو» مرة أخرى، وهو يدفع أمامه العربة الفضية الكبرى التي تحمل أطباق المشهيات والأكواب البلورية وسلال الحلوى والبتي فور!

هل تذكر أنك -حين كنت صغيرًا- وتدعوه بصديقك العظيم؛ لأنه كان يختلس الخُطى نحو غرفتك من وقت لآخر، حاملًا إليك بعض ألوان الحلوى وصنوف الفطائر!

كان ذلك في الماضي، أما الآن فسوف تقف على قدميك معنا وقوف الند للند طويلًا رشيقًا، بيد أني أخشى أن يتملكك الخجل والاضطراب، فهذه هي المرة الأولى التي نسمح لك فيها بشهود حفل استقبال، وربما لم تعرف مكانك جيدًا بين هؤلاء القوم، وأنت تدير بصرك فيهم وفيَّ أنا أيضًا، وفي نفسك انطباعات قد تبدو في عينيك. ولن يستطيع تفسيرها أحد.

أتراك ستصفني بالحماقة والنزق حينما تراني أعانق المدير العام

باعتباره عرَّابي وكفيلي، فقد جرت العادة أن يكون لكل مَن يحتفل به من حاملي «اللجيون دونور» لأول مرة عرَّاب مثل أطفال المسيحيين حينما يعمدون في الكنيسة، وهل ستسخر مني حينما تسمعني ألقي خطاب الشكر بقدر ما تعيه ذاكرتي، وأنت تعلم أني لا أكره شيئًا في الدنيا مثل الخطابة؟

وقد حصل زوج عمتك، «فاشيه» على «اللجيون دونور» أيضًا، ولم يأته عفوًا أو صدفة كما حدث لي -وذلك حق-، بل كافح طويلًا وبرز اسمه في الأوساط الأدبية قبل أن يستحقه، بل إنه لشديد ثقته في نفسه، كان يعلم أنه سيناله بكل تأكيد قبل ذلك بأربعة أو خمسة أعوام على الأقل، فهو من ذلك الطراز من الناس الذي يقدر سلفًا كل خطوة يخطوها.

وهو قد بدأ أيضًا من أول الدَّرَج؛ كان أبوه شرطيًّا برتبة نفر وأمه حائكة ثياب، ويقطنان ضاحية «فتيلي» بالقرب من «لاروشيل»، وهي مجموعة من البيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد يقطنها كتبة المصانع والمعلمون وعمال السكة الحديد وعجائز النساء ممن يتكسبن من إعطاء دروس البيانو والموسيقى، وأذكر أني زرتها في صباي، ورأيت الرجال يعملون في حدائق منازلهم الخلفية. ونساؤهم يثرثرن من فوق الحواجز والأسوار.

لا تحسبني أحتقر الطبقات الدنيا، أو أحط من قدرهم، على العكس، إنني لأحترم فيهم طموحهم وكفاحهم، وأحسدهم على نجاحهم، بيد أني أستطيع أن أميز أكثرهم مهما ارتفعت مراكزهم في الحياة بما ألمحه في نظراتهم من عداء سافر وكراهية عميقة لمن

هم دونهم؛ ذلك لأن ما يدفعهم ويحثهم على التقدم والتفوق ليس مجرد الرغبة في المناصب، بقدر حرصهم الشديد ولهفتهم القوية في التخلص من شيء يشدهم ويجذبهم إلى القاع، فما يكاد الواحد يجد الفرصة قد سنحت له ليطفو فوق السطح، حتى ينفض ثيابه اشمئزازًا مما علق به من أدران الماضي، ولا يتطلع إلى مَن خلفهم وراء ظهره إلَّا شزرًا، بل إن عقدة النقص التي ترسبت في اللاشعور من عقله تجعله يقسو في المعاملة على مَن يسوقه سوء الحظ فيعمل تحت إمرته، وكأنه ينتقم مما شاهده ولقيه في طفولته.

وكثيرًا ما سألت نفسي هل كانت أمك أسعد حالًا مما هي الآن لو تزوجت رجلًا مثل «فاشيه»؟ أما كان كل منهما يعضد صاحبه وتتضافر قواهما في شق طريقهما نحو النجاح؟

ولا أستطيع أن أخدع نفسي أو أضعها في غير موضعها، فإني أعلم تمامًا أن طراز أمك من النساء لا يتلاءم معي، وكان يجدر بي أن أبحث عن امرأة بسيطة محدودة المواهب تلزم بيتها قانعة بإدارة شؤونها المنزلية، وتجيد طهو أصناف الطعام ورعاية الأطفال، امرأة مثل السيدة «ترمبلي»، أو تراني مخطئًا أتشبث بالخيالات والأوهام؟ وهل هي سعيدة بزوجها حقًّا؟

وبفرض أن والدتك كانت قد تزوجت «فاشيه» أما كانت تستقل في إشباع طموحها نحو الشهرة والمجد، في ميدان يختلف تمامًا عن ذلك الذي لمع نحو زوجها فيه، ولا تلبث عاجلًا أو آجلًا أن تنشق عليه، وتضرب بذلك الأحمق عرض الحائط؟

هذا يذكرني بما حدث هذا المساء.. فلقد سمعت صوته – وأنا أعرف صوته جيدًا– يتحدث في همس مع والدتك أمام الباب الخارجي ويقول لها: «ألن يخرج آلين معك؟».

– أنت تعرف «آلين» أكثر مني، لو استطعت أن تحرك جبلًا، لكان ذلك أيسر من أن تجعله يخرج من البيت بعد العشاء!

وليس غيرنا في الشقة الآن أنا وأنت، ولا ينبعث أي ضوء إلَّا من غرفتك، ومكتبي وباقي الغرف تسبح في ظلام دامس، أنت تجلس أمام قمطرك تقرأ وأنا أجلس أمام مكتبي أحاول الكتابة، وهأنذا أسمعك في هذه اللحظة وأنت تنطلق نحو الثلاجة الكهربية، وتفتحها لتعد لنفسك كوبًا من الليمونادة وبتقدير الزمن الذي قضيته في المطبخ، عرفت أنك قد وقعت على بعض الصحاف التي سال لها لعابك شريحة من اللحم البارد أو ربما قطعة من «الجاتوه»!

وتوقعت –وأنا أمسك أنفاسي– أن تجيء إلى غرفتي؛ فنتبادل بعض الحديث ونسري عن نفسينا، فلا شك أنك قد رأيت الضوء ينبعث من تحت عقب بابي في أثناء مرورك به، ولكنك –أكبر الظن كنت متأثرًا بما اعتادت أمك أن تنبهك إليه دائمًا من عدم اقتحام خلوتي حيث أكون مشغولًا في عملي– فخشيت أن تغضبني وتقطع عليَّ تفكيري!

وإني لأعجب مما انتابني هذا المساء، فأنا أشعر ببعض الاضطراب وأنا أكتب كل ذلك الهراء محاولًا عبثًا أن أبطئ ما استطعت قبل أن أصل لتلك المرحلة الحاسمة من قصتي، والتي أراها تقترب مني برغم أنفي بخطوات حثيثة، إنها يا ولدي أهم في رسالتي إليك، بل

هي السبب المباشر في كتابتها لك.

ولكني -وقبل ذلك- أرى نفسي مضطرًا إلى تذكيرك بحادثة صغيرة، أرجو ألَّا تترك في نفسك انطباعًا بأني أحاول إثارتك ضد والدتك، حدث ذلك وأنت في فرقتك الخامسة، وحتى ذلك الحين، وأنت الأول دائمًا في فرقتك خلال مراحل تعليمك، اللهم إلَّا نادرًا حينما يشتد التنافس ويخونك الحظ، فتحتل المركز الثاني في الترتيب، ثم يشتعل حماسك فتعود لتحل المركز الأول!

وكنا نحرص في نهاية كل عام على أن نحتفل بتفوقك، ونقدم لك هدية ثمينة على سبيل التقدير والتشجيع!

ولست أدرى كيف شعرت فجأة بأنك على غير عادتك ولست على ما يرام ذلك العام؟ ربما حاستي السادسة هي التي نبهتني لذلك، أو عن غريزة مكتسبة مما جربته في صباي، ومن ثم فقد أدركت أنك تعاني قلقًا نفسيًّا، أكبر ظني أنه يعود لحاجتك الشديدة لشيء من الرياضة والراحة والاسترخاء الذهني، فقد لاحظت أنك تركز جل فكرك واهتمامك في الاستذكار والتحصيل دون أن تقدر لبدنك حقًّا.

وكنتَ قد تعرفتَ في أثناء اصطيافنا -في العام السابق- «بأراشون» ببعض الأولاد، وكانوا يمتلكون زورقًا، فطلبت مني أن تكون هديتي لك في عيد الميلاد زورقًا مثله، ولكن أمك سارعت بلا حق تعارضك في خشونة ظاهرة، وتقول:

- ما أسخف رأيك! أتطلب هدية لعيد الميلاد لن تفيد منها إلَّا في الصيف القادم وبعد ستة شهور كاملة؟ ثم أين نستطيع أن نحتفظ

به في «باريس»؟ أنضع زورقًا في شقتنا؟ فكر في هدية أخرى تناسب عيد الميلاد، أما الزورق فعليك أن تشمر عن ساعدك وتجد وتكد في الاستذكار، وسوف نشتريه لك في الصيف القادم ليكون هدية تفوقك ونجاحك!

وفي رأيها أنك حتى تستحق الجائزة ينبغي ألَّا تفوز بأقل من المركز الثاني، ولا شك أنها معذورة في هذا، فأنت الذي عودتها بنفسك ذلك.

وكنت -قبل امتحانك بشهر كامل- قد ذهبت لأتفرج على الزوارق في ميدان الجيش الكبير، وطلبت منك مرافقتي، حتى أتيقن الطراز الذي تحبه وترغب فيه.

- هل هذا ما تريد؟

فقد أومأت إلى زورق متوسط الحجم مصنوع من الألومنيوم المذهب، ولاحظت -لشدة دهشتي- أنك كنت فاقد الحماس بشكل واضح، فقد بدا عليك الوجوم والتفكير والحزن، كما لو كنت تشير إلى تابوت، لا إلى هدية ثمينة تمنيت الحصول عليها!

وذات مساء، ونحن على مائدة العشاء، سمعتك تقول وفي صوتك رنة ألم وأسى:

- من المؤكد أنني لن أكون على رأس فرقتي هذا العام، لقد خانني الحظ في اللغة اللاتينية.

وانفجرت أمك غاضبة متوعدة:

- أما حذرتك مرارًا ونبهتك إلى أنك لا تبذل أقصى جهدك في استيعاب الدروس؟

ومع ذلك كنت قد اشتريت لك ذلك الزورق، وتركته في المتجر بعد أن وعدتهم بأني سأخطرهم تليفونيًّا بالموعد والمكان اللذين سيتم فيهما التسليم.

وحينما ذهبنا إلى حفل توزيع الشهادات والجوائز الذي تقيمه المدرسة آخر كل عام، والذي اعتدت أن أشهده برفقة والدتك -مع قلة من الآباء يحضرونه- تبين أنك لم تحرز الترتيب الأول ولا الثاني، بل أحرزت السادس!

وما زلت أذكر لحظة أن خرج ثلاثتنا من باب مدرسة «الليسيه كارنو» صامتين، وكأن على رؤوسنا الطير، وعندئذ كنت أتلهف على أن أمسك يدك، وأضغط عليها مواسيًا مشجعًا؛ لأبعث في نفسك شيئًا من الثقة والطمأنينة، ولكنك كنت بعيدًا عني بجسمك وقلبك، وكانت أمك بيننا لم تنبس بحرف واحد، حتى وصلنا باب بيتنا في ميدان «ماكماهون»، وعندئذ نظرت إليك بعينين ينبعث منهما الشرر:

- لا أظنك تفكر الآن في الحصول على ذلك الزورق يا «جان بول»؟

ولم تنبس ببنت شفة، بل شمخت بأنفك في الهواء ومضيت لا تلوي على شيء.

وحين انفردت بوالدتك بدأت أدافع عنك، ولكنها قالت في حزم:

- تستطيع أن تفعل ما يحلو لك، فأنت أبوه، أما الأمر بالنسبة لي

فهو مسألة مبدأ، فذلك الزورق ما هو إلَّا مكافأة كان سينالها نظير القيام بعمل ما، وهذا ما تم التفاهم عليه بيننا وبين «جان بول»، وهو الذي قد أخلَّ من جانبه بهذا الاتفاق المبرم بيننا، ولم يفشل فقط في اللاتينية، بل حصل على درجات مخجلة في بعض المواد الأخرى. فإذا ما عودته أن في وسعه أن ينال شيئًا نظير الكسل والإهمال، فلن تخلق منه رجلًا يحقق النجاح بقوة ساعديه، أو يشعر بطعم المكافأة مقابل الكفاح والعرق، بل سيكون شأنك شأن الدبة التي قتلت صاحبها الذي تحبه!

وعندئذ ومرة أخرى فهمت وجهة نظرها، وربما لم تخطئ في ظنها أو يجانبها الصواب في صدق رأيها، ومع ذلك فقد انطلقت إلى غرفتك، حيث كنت منكبًا فوق مكتبك تتظاهر بقراءة إحدى الروايات.

قلت لك بصوت خفيض:

- لا تبتئس، فسوف تحصل على هديتك!

فأجبتني وأنت تنظر إليَّ نظرة تمثلت فيها الرجولة والنضج، وقد خُيل إليَّ أنك حزين من أجلي:

- لا تفعل ذلك يا أبتاه!

- صه! فسترى زورقك في انتظارك حالمًا تصل إلى «أراشون»!

- لا، لم أعد بحاجة إليه.

وفهمت وجهة نظرك أيضًا، أجل.. فهمتكما معًا، أنت ووالدتك.

وظل الزورق خمسة عشر يومًا ملقى في حديقة الفيلا التي اعتدنا استئجارها كل صيف في «أراشون»، دون أن تلقى عليه نظرة واحدة.

كان يؤلمك ويحز في نفسك أنك لا تستحقه.

أقول لك ذلك؛ لأن أبي أهدى إلى زورقًا أنا الآخر ذات يوم، وبالرغم من أني لم أكن جديرًا به فقد قبلته بلا تردد، بل قد استخدمته في شق طريقي وسط الأمواج العاتية، حتى وصلت بر الأمان.

ومن أجل ذلك.. انطلقت وأنا فيما بين العشرين والثلاثين أقتل نفسي في العمل الشاق، دون أن أتيح لها أي فرصة للمسرات.

كان ذلك حتى أعوض ما فاتني، وأؤكد لنفسي -قبل أي مخلوق آخر- أنه لولا فضل أبي عليَّ ما استطعت أن أجلس الآن لأسطر لك هذا، ولربما كان قد تغير وجه التاريخ بالنسبة لأسرة لافرنسوا!

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

كنت في مثل قامتك، إنما أعرض منك قليلًا عند الكتفين؛ لأني -حينما كنت في مثل قامتك- أكبرك بثلاثة أعوام، وإليك في إيجاز شديد ما أعرفه عن أسرتي وأسرتك.

وكبداية لحديثي وفي نظري من الأهمية بمكان أن تعرف أني لم أنعم في طفولتي أو صباي بالإقامة في منزل خاص أو شقة نملكها مثل باقي الأطفال، بل في مساكن حكومية يختلف اتساع حجراتها ويتباين أثاثها وفراشها أيضًا من البسيط إلى الفاخر من الرياش، كلما تنقل أبي من منصب لآخر أرفع شأنًا.

وحين ولدتُ أنا، كان أبي «فيليب لافرنسوا» الذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين ويحمل الدكتوراه في القانون -قد بدأ- منذ وقت وجيز حياته الإدارية، وشغل منصب السكرتير العام لمحافظة «جاب» في مقاطعة «الألب العليا»، ثم- وأنا في الثالثة من عمري- كان وكيلًا لمحافظة «ميلو والأفيرون»، ثم صار بعد ذلك وكيلًا لمحافظة «جراسي»، حيث عرفت المدرسة لأول مرة في حياتي.

وقد تدرجت بعد ذلك بين «الليسيه» في مدينة «بو»، ثم «ليسيه فينلون»، وأخيرًا في «لاروشيل» حيث استقر مقامنا بها حوالي سبع سنوات متوالية، ولعل هذه المدينة الأخيرة هي الوحيدة التي أتاح لي طول المدة أن أعرفها في طفولتي. أما ما عداها وأقمنا فيها من قبل فلست أذكر عنها إلَّا ملامح خفيفة أشبه بالأطياف؛ لقلة مقامنا بها.

ما كنت أكاد أهنأ بدار جديدة وأعتادها وأنظم حاجاتي ولعبي في غرفتي، وأبدأ أحبها، وآلف أساتذتي ومعلمي في المدرسة، وأتعرف إلى رفاق وأبدأ معهم صداقات جديدة، حتى يصدر أمر نقلنا إلى محافظة أخرى بمسكن حكومي جديد وغرف أخرى، ووجوه تختلف تمامًا عما اعتدتها.

وهناك في «لاروشيل» تزوَّجتْ شقيقتي «آرليت» «ببيير فاشيه» الذي كان كما أخبرتك سابقًا رئيسًا للمستخدمين في مصلحة الأشغال العمومية، ولم يجد العروسان الصغيران بيتًا ملائمًا ينتقلان إليه، أو لعلهما قد زعما ذلك رغبة في الاقتصاد والتدبير، فشاركانا في الإقامة في الطابق المخصص لسكنانا في دار المحافظة.

وأستطيع أن أزهو أمامك بأبويَّ.

فذلك القصر القديم الكئيب الذي فتحت عينيك لترى جدك وجدتك يعيشان فيه بضاحية «لوفيسينيه»، كذلك مظهرهما البسيط وحياتهما الهادئة المتواضعة بعد أن بلغا من الكبر عتيًّا، كل ذلك ليس كافيًا حتى ترسم في نفسك صورة كاملة عنهما.

ولن أغوص بك بعيدًا في أعماق الماضي البعيد: في الواقع ليس

أبعد من «أوربان لافرنسوا» جد أبي الذي عاش في الفترة ما بين «١٨٢٣ -١٨٩٩»، ولعل من المثير أن تعرف أنه كان صديقًا حميمًا لمشاهير العظماء ممن خلدهم التاريخ، أمثال: فكتور هوجو، ومارتين، وجورج صاند، وإسكندر دوماس الكبير. وما زلت أحتفظ بكثير من الخطابات المتبادلة بينه وبين أولئك وغيرهم من رجال الفنون والآداب.

وإذا كنت قد رأيت صورة للدوق «دي مورفي» فهي صورة طبق الأصل لجد أبي.

وتستطيع أن تتخيله وهو في ثياب الإمبراطورية الثانية الموشاة. وهو يتردد دائمًا على البلاط، حيث كانت الإمبراطورة يوجيني تميل لصحبته وتسعد بحديثه وفكاهته ومداعباته المرحة، وكان ينفق من دخله الخاص -شأن سراة القوم ونبلائهم في ذلك العصر مسرفًا إلى حد التبذير على حساب هدم رأس ماله، ومن حسن حظ أبنائه أنه كان مفتونًا بهواية شراء اللوحات الزيتية التي يرسمها أصدقاؤه الرسامون، وحين مات كانت تلك اللوحات أغلى ثمنًا وأرفع قيمة من الفدادين القليلة التي خلفها وراءه مثقلة بالرهون والديون.

ولقد رآه أبي في أيامه الأخيرة، وتأثر بما كان يعيش فيه جده من ترف وبذخ، وسمعته يفخر أمامي بأن جده كان أحد أعضاء نادي «الجوكي»، الذي كان مجرد الانتساب إليه شرفًا عظيمًا وفخرًا كبيرًا.

وفي نظري، وأنا من جيل يسبق جيلك، أني يشق عليَّ أن أتصور حياة الفراغ التي كان يعيشها أمثال هؤلاء الناس عاطلين بلا عمل، لا شاغل لهم سوى الاغتراف من ملاذ الحياة والتمتع بمسراتها.

وكان يمتلك بيتًا قرويًّا صغيرًا من طراز القرن الثامن عشر يتوسط فناء كبيرًا في شارع «دي باك» ورثه جدي، وأقام فيه طول حياته. ولقد أخذتك ذات يوم لتراه، أتذكر؟ ذلك البناء الأثري الذي يتوسطه محلًا لبيعه الأنتيكات على اليسار، ومكتبة قديمة إلى اليمين، وله باب ضخم مدهون بالأخضر الغامق، إذا دلفت منه مررت تحت قنطرة ذات أعمدة بها غرفة البوّاب، ثم سرت فوق الممشى إلى الفناء الكبير المرصوف بالحجر المربع الملون، ورأيت شجرة الليمون الكبيرة التي تتوسطه.

أما المنزل الذي في الجانب البعيد والذي يبدو وكأنه عش غرام منعزل عن الأعين فإني أعتقد أنه قد شُيِّد خصيصًا ليضم بين جدرانه الرقيقة الحانية محبوبة لأحد النبلاء الأرستقراطيين، أو ربما لأحد قادة الجيش من الجنرالات العظام الذين انحدروا من قلب الريف وعرف عنهم شدة الغيرة على مَن يتملكون من الغانيات، وعلى الأخص حين تجول بين غرفه المشمسة الواسعة ذات الشرفات الكبيرة التي تحمل أحواض الزهور الساحرة، وتصل إلى غرفة الجلوس، ومنها إلى مكتب جدي.

وأخشى، إذا ما وصفتُ لك جدي «أرماند لافرنسوا»، أن تحسبه أحد تلك الشخصيات الهزلية التي تبعثك على الضحك، فلا بد أنك شاهدت بعض الأعداد القديمة من مجلة «الحياة الباريسية» وما اعتادت أن تبرزه بين صفحاتها من حين لآخر من الرسوم الكاريكاتورية التي تمثل «أيام زمان»، أولئك رجال مشدودو القوام، شعرهم طويل أبيض ناصع، وشواربهم كثة مصبوغة، والمونوكل يلمع فوق أعينهم،

ينظرون من خلاله في كبرياء واستعلاء، وقد ارتدوا الصداريات ذات الذيل الطويل من الخلف والمفتوح من الأمام، فوق سراويل حريرية ملونة ضيقة عند الركبتين!

تلك هي -باختصار- صورة جدي، إذا أضفت إليها أن شعر رأسه لم يكن غزيرًا وقد دب صلع خفيف في المقدمة كان يحاول جاهدًا إخفاءه بتمشيط شعر الجانبين في المنتصف!

أرستقراطي عجوز كما سمعتهم يطلقون عليه، ماتت زوجته الشابة وتركته في مقتبل العمر، فمضى يسري نفسه ويبحث عن السلوى على نطاق واسع، حتى حينما بلغ السبعين كان لا يزال فيه بقية من فتوة ونشاط.

لكنه لم يكن عاطلًا مثل أبيه، فقد عكف على الدرس والتحصيل في همة وقوة، حتى حصل على أعلى الشهادات في الاقتصاد السياسي، ثم لمع نجمه، وشغل أرقى المناصب في ديوان المحاسبة.

كل ذلك قد يكون ثقيلًا على نفسك، يبعثك على السأم والملل، أعرف ذلك جيدًا، ولكني قد أخبرتك سلفًا بأن ذكرى الإنسان تعيش مائة عام ثم تندثر، ولم يمضِ إلَّا أقل من عشرين عامًا لا غير، منذ أن توفي جدي في السنة التي تزوجت فيها -وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره، ومن ثم أجد صعوبة في رسم صورة حية له أمام عينيك.

وما من شك في أنه كان قليل الكلام، جامد الوجه، يفخر بأنه يستطيع أن يمتلك زمام عواطفه، فلا تكشف ملامحه ما قد ينطبع في نفسه من انفعالات ومشاعر، وأذكر ذات يوم حين كنتُ فيما بين

العاشرة والحادية عشرة من سنيِّ حياتي، أن غلبني البكاء في حضرته، فما كان منه إلَّا أن وضع المونوكل فوق عينيه وحدجني بنظره مقطبًا حاجبيه، ثم رمق أبي بنظرة لوم وعتاب.

أتراه كان يعاني آلام الوحدة خلال الأعوام العشرين الأخيرة من حياته؟ فقد كان يعيش وحيدًا في عشه الصغير، إلَّا من طباخة عجوز «ليونتين» التي خدمته طوال حياتها، ووصيف يُدعى «أميل» ابن أحد الزارعين القدماء.

وكان ما ورثه عن أبيه من مال قليل قد ذاب، كما يذوب الجليد تحت الشمس الحارة، ولم تبقَ إلَّا تلك اللوحات الزيتية، ولم يكن ثمنها قد ارتفع بعد، أما البيت الذي يقيم فيه في شارع «دي باك» فقد كان مثقلًا بالرهون، تستغرقه الديون إلى آخر مليم من ثمنه!

ومع ذلك، فقد استطاع أن يحتفظ بكرامته وكبريائه إلى آخر لحظات حياته، ومن بينها السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها فوق مقعد متحرك على عجل.

هل كان يعلم بما حدث في عام ١٩٢٨؟ لا أدرى! بيد أني متيقن من أن أبي لم يذكر له شيئًا إطلاقًا، وبرغم ذلك فأكاد أقسم أنه حدس وشعر، وحمَّلني كل التبعات، وألقى عليَّ اللوم، فقد تغيرت نظرته نحوي، واتخذت طابعًا من البرود وعدم الاكتراث الشديد.

وكان يحمل هو أيضًا -مثل السيد مدير شركة التأمين- وسام الشرف من طبقة فارس، كما كان يحوز في الوقت نفسه عددًا من القلادات والنياشين التي منحته إياها كثير من الدول الأخرى، التي

انتدبه إليها لاستشارته في أمور المال والاقتصاد.

والشباب يا ولدي كثيرًا ما يُخدعون في أمثال هؤلاء ممن يرتدون قناعًا فوق وجوههم، يكرهونهم قبل أن يحاولوا النفاذ إلى ما وراء ذلك، فيصلوا إلى القلب الأبيض الممتلئ طِيبة وحبًّا.

أما وقد مضى سبعة عشر عامًا على وفاته، فأنا أشعر بالأسف لأني لم أوجه إليه أسئلة معينة فلا شك في أنه وقد حنكته التجارب والأيام، ورأى كثيرًا من صنوف الناس والحياة لا شك في أنه كان على ذكاء كبير وتفكير عميق، وكان في وسعه أن يقود نفسي الضالة الحائرة إلى بر السلامة والأمان ويجيب على أسئلتي!

وربما كنتُ مخطئًا في أوهامي، فما من والد إلَّا ويتمنى لو استطاع أن يفرغ عصارة قلبه وخلاصة تجاربه في عقل ولده، حتى يحميه ويؤمِّنه على مستقبله من مفاجآت الزمن وأحداثه، ولولا ما ورَّثَتْهُ إيانا الأجيالُ الماضية من ينابيع الحكمة والمعرفة التي حمل أجدادنا مشعلها منذ آلاف السنين، وتناقلتها السواعد الفتية من جيل إلى جيل، ما قامت على أرضنا مدينة ولا حضارة، ولظللنا نقيم في أغوار الكهوف وأعماق الجبال!

كان الفارق بين جدي وجدك كبيرًا، إنه الفارق بين ذلك العش الصغيرة الجميل بشارع «دي باك» والذي لم يعد لنا منذ أمد طويل وسوف يهدمونه ليقيموا مكانه دورًا حديثة –وبين فيلا «ماجالي»، بل إنه الفارق بين ذكريات طفولتي وذكريات طفولتك!

كنت أجد جدي جامد القلب بارد العاطفة.

كذلك لا بد أنك رأيت في أبي قطعة أثرية مهملة، نسج عليها عنكبوت النسيان خيوطه في ظلال تلك الحياة المملة في فيلا «ماجالي»، وهنا أختلف أنا معك، فهو في نظري -لا لأنه أبي، بل للحقيقة والتاريخ- هو في نظري المثل الأعلى في الوفاء والحب والتضحية، لم يفكر في عدم الوفاء لزوجته المريضة، ونذر نفسه لرعايتها في إيمان وإخلاص حتى لفظت آخر أنفاسها راضية سعيدة.

ولأنهما لم يظهرا إلَّا على هامش حياتنا فقط، ولم تتوطد صلاتنا بهما لبعد الشُّقة بيننا وبينهما، باعتبارهما جيلًا ثانيًا بالنسبة لي ولك، فنحن لا نراهما إلَّا أشباحًا غير واضحة، وخطوطًا باهتة لا تثير فينا شديد اهتمام. دون أن نتذكر أن كلًّا منهما لا بد قد كان، في أيام عزه وعنفوانه، نجمًا يلمع في السماء، وتتركز عليه الأضواء.

وربما حين تجلس بين أبنائك وحفدتك ذات يوم وتستعيد معهم ذكريات الماضي.. تحب أن تذكر لهم شيئًا عن جدك الثاني -والد أمي «لوسيان آيفارد»- الذي لا شك أنك قد قرأت عنه في دراساتك، فقد كان رجلًا ذا أهمية كبيرة في المجتمع الدولي.

فبينما كان جدي «لافرنسوا» قد نجح في شق طريقه في السلك الإداري تحت ظل الجمهورية، كان جدي «آيفارد» يلعب دورًا هامًّا في السياسة الدولية، حينما كانت وظيفة السفير أعظم مناصب الدولة على الإطلاق.

أتعلم أن أمي لم تهنأ قط بالإقامة في منزل دائم منذ ولدت إلى أن أقامت في فيلا «ماجالي» بضاحية «لوفيسينيه»؟ فلقد كانت تنتقل

من سفارة لأخرى في عواصم الدنيا، ثم بعد أن تزوجت أبي ظلت تنتقل معه بين مختلف المحافظات الفرنسية منذ أن احتل في شبابه منصب السكرتير العام، حتى غدا محافظًا مرهوب الاسم والجانب، فلقد ولدت أمك في «بكين» -وتعلمت القراءة في أحد أديرة «بيونس آيرس» قبل أن تذهب إلى «ستوكهولم» و«روما» ثم «برلين».

وكذلك كانت أمها من قبل. ولدت على أرض أجنبية، وكان اسمها (كونسويلو كافيز) ابنة وزير «كوبا» المفوض في «لندن»، وهناك تقابلت مع جدي في إحدى الحفلات الدبلوماسية حين كان يعمل سكرتيرًا لسفارتنا.

وإنني -مثلك يا ولدي- أكاد أكون خالي الذهن تمامًا عن ذلك الطراز من الحياة التي لم تشهدها عيناي، والتي لا شك في أنه قد أصابها كثير من التعديل منذ تلك السنين الماضية حتى الآن.

وأذكر أني قرأت ذات يوم مذكرات جدي «لوسيل آيفارد». وهو مجلد كبير من جزأين طبعه أحد كبار الناشرين في (فويورج سنان جرمان)، وأطرف ما فيه ذلك الباب الذي يضع فيه الحلول لمشكلات الشرق الأوسط، وكذا الجزء الذي يلقي فيه كثيرًا ومزيدًا من الأضواء على سياسة الداهية «بسمارك» في الملاحة لمسألة دول أمريكا اللاتينية، مما يؤكد عمق تفكير جدي، وأهمية الدور الذي لعبه على مسرح السياسة الدولية، ولقد وقفت طويلًا عند تلك الفقرة التي يقول فيها:

«كانت لنا مصادرنا الأمينة الخاصة التي تزودنا بالحقائق المجردة الخطيرة، وتمدنا بسيل لا ينتهي مما يدور خلف الكواليس وبين

ردهات القصور وجدران المكاتب الصماء التي يقف على أبوابها الحراس المدججون بالسلاح من أحاديث سرية حتى لا نُفاجأ في أي وقت بما ليس في الحسبان. ولقد كان من واجبنا أن نبتسم في وجوه ألد أعدائنا: نظهر خلاف ما نبطن، ونضحك ملء أفواهنا في أشد الأزمات وأحرج الأوقات، ونقيم حفلات الاستقبال، وهناك بين الرقصات وكؤوس الشراب وغمزات الأعين ورنين القبلات وعبارات المجاملة والترحيب، تحاك أخطر المؤامرات السرية ممزوجة بقصص الحب والهيام!».

ولم تكن أمي وشقيقاتها -بحكم اختلاطهن- غارقات لآذانهن في تلك الحياة الصاخبة فحسب، بل كانت جدتك تلعب أهم الأدوار وألمعها على مسرح السياسة العالمية في عصر فيه كثير من العروش الضخمة على الزوال والانهيار، ولم تكن أسماء «إدوارد السابع» و«ليوبولد الثاني» والقيصر أو «الأرشيدوق العظيم» بالنسبة لها مجرد أسماء تتردد في الصحف أو بين كتب التاريخ، بل مخلوقات من لحم ودم كثيرًا ما ظهرت أسماؤهم من بين طالبي مراقصاتها.

ومن المؤكد أن جمالها كان فاتنًا، ولوحتها الباستيل المعلقة على جدار غرفة مكتبي تشهد بذلك، ولكن أهم ما كانت تتميز به هو روحها المرحة وجرأتها المذهلة، مما جعلها ألمع وأشهر نجوم المجتمع في ذلك العصر، وكان ذلك منها أمرًا شاذًّا غير مألوف بالنسبة لعاداتنا وتقاليد تلك الأيام، التي كانت تتسم بكثير من التحفظ وخاصة بالنسبة للنساء.

وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، عندما شغل أبوها منصبًا خطيرًا في وزارة الخارجية، وفي تلك الأيام جمعها القدر مع أبي الذي كان يكبرها بأربعة أعوام.

وكانت شقيقاتها جميعهن قد تزوجن وقرن في بيوتهن، ما عداها، وعرف الناس جميعًا أنها لن تتزوج أبدًا؛ لأنها فتاة طائشة جموح تملكها الغرور، ولن يقدر أحد على كبح جمالها، وأنها لن تسلم قيادها أو قلبها لأي إنسان!

ثم وقعت تلك الحادثة المؤسفة والتي أخبرتني بها شقيقتي، ولست أدرى من أين علمت بها وعن أي طريق؟ فمن الثابت أن أحدًا لم يذكرها على لسانه قط في بيتنا.

كانت المبارزات شيئًا نادرًا في عام ١٩٠٣، بل حرَّمها كثير من القوانين، وأن وقعت في بعض الظروف، فبنسبة أقل بكثير مما اعتاده الناس في أواخر القرن الماضي، حين كان المسدس والسيف أو الخنجر هو أسهل الحلول لكل المشاكل مهما اختلفت أنواعها بين أفراد الطبقات النبيلة.

وفي تلك السنة لقي أحد مَن تعرفهم أمي -وهو كونت إيطالي- حتفه في مبارزة بالسيف، وأكبر ظني أن المسألة بدأت في ملهى «مكسيم»، وفي إحدى السهرات الصاخبة حين مضى أحدهم يلقي بعض الفكاهات اللاذعة التي تمس سيرة ابنه السفير «آيفارد»، وكان المتحدث أحد نبلاء دول البلطيق.

وشهدت غابة «ميودو» في ساعة مبكرة ذات صباح، مبارزة لم

تستغرق سوى دقائق، التحم فيها سيفان، ثم كانت الخاتمة السريعة حينما طعن النبيل البلطيقي غريمه الكونت الإيطالي طعنة نجلاء مات على أثرها، واضطر أن يغادر «باريس» على عجل، وظل محرومًا من رؤية أبوابها حتى بعد الحرب العالمية الأولى.

أما في إيطاليا؛ فقد أُعلن الحداد على الضحية المسكينة، وكان لمقتله صدى كبير، ولست أدري هل الأسرتان ما زالتا تحتفظان بذكرى ذلك الحادث الأليم؟ وهل ترى يقص العجائز والشيوخ على أولادهم وحفدتهم في ليالي الشتاء قصة جدتك والدور الذي لعبته بطريق غير مباشر في حياتهما؟

ولعلك سمعت أمك -حين يثور بيننا نقاش لسبب ما يخرجها عن طورها- وهي تهتف في حدة:

- أراك تداوم على تسفيه آرائي؛ لأني لست من أسرة «لافرنسوا»!

أو تحدجك ببصرها -في بعض الظروف- حين تشمخ بأنفك في وجهها عزة وكبرياء، فتقول لك غاضبة: «حقًّا إنك لمن أسرة «لافرنسوا»!».

فمهما حاولت، لن تستطيع أن تنسى أنها انحدرت من قوم بسطاء لم يكن لهم شأن كبير في المجتمع، ومن ثم فهي تُكنُّ لي -دون قصد في أعماق لا شعورها الباطني- ضغينة خفية، تطفو في المناسبات غير السارة، فتبعث فيها اعتقادًا بأني أزدريها لذلك السبب، برغم أني -وأؤكد لك ذلك- لا أعير هذا الأمر أدنى اهتمام. وذلك الحسب والنسب الذي يقف دائمًا شبحًا بيننا، أنا نفسي أود من أعماق قلبي لو

أنساه، ولا فضل لي فيه!

وليس ثمة شك في أن أي زواج لا يعني مجرد ارتباط شخصين لا غير، بل هو في الحقيقة اندماج أسرتين وعشيرتين، لكل منهما تاريخها وأخلاقها وطباعها ونظام حياتها، ولا بد من حدوث اصطدام بينهما ليتم التمازج المطلوب، ولا بد من أن يتغلب الطرف القوي منهما على الضعيف، فيسير في ركابه، ومن ثم تتراجع العشيرة الضعيفة بين الظلال، ولا تلبث حتى تختفي في زوايا الإهمال والنسيان، ولكن بعد أن يتخلف عن ذلك الصراع الخفي شعور بالمرارة، ثم يزول بمضي الأجيال.

ولم أكن أعرف ذلك، ونحن في مدينة «كان»، بل ولم أفكر فيه بتاتًا، وأستطيع أن أعترف صراحة بأني أدركت ذلك للمرة الأولى، وشعرت بأني سليل أسرة «لافرنسوا» وأحمل اسمها، حين ولدت أنت، وصفعتني الحقيقة التي لا مفر منها من أنه سيكون لي وريث يحمل اسمي واسم الأسرة من بعدي!

ولم تكن الهوة التي تفصل بين أبي وأمي بمثل اتساعها بيني وبين أمك، كان الأولان من «عالم» واحد، بينهما تكافؤ في المركز الاجتماعي، وكلاهما كان يبرز اسمه في عمود الاجتماعيات اليومي بالصحف السيارة من أمثال «الجولوا» و«الفيجارو»، باعتبارهما من البارزين واللامعين في المجتمع الذي تهتم الطبقات الأخرى بتتبع أنبائه.

كانت هناك بعض الفوارق الهينة -بلا ريب-، وكان «آيفارد» قد

أنفق جزءًا كبيرًا من ثروته، وتضاءل رصيده عن ذي قبل، وخاصة بعد أن زوَّج أربعًا من بناته، ودفع لكل منهن دوطة كبيرة تناسب مقامه كسفير معروف، لكنه مع ذلك ظل محتفظًا بمركزه ومهابته في نظر الخاصة والعامة، في الوقت الذي كان فيه «لافرنسوا» العزب يمثل الطبقة الأرستقراطية القديمة بثيابه التقليدية المضحكة.. ونفخته الكاذبة.

وكان أبي -بعد أن انتهى من دراساته في القانون- قد اختار لنفسه الانخراط في سلك الوظائف الإدارية داخل «فرنسا»؛ لإشباع هواية خاصة في نفسه، وكان في استطاعته لو أراد أن يشغل وظيفة ممتازة في الخارج.

وشاءت المقادير أن يتقابل هو وأمي في إحدى الحفلات الرسمية الراقصة، ولم يكن قد مضى على تلك المبارزة وقت طويل، وما زال صداها يتردد في كل مكان، فأحبها.

أرأيت إذَنْ لماذا طلبتُ منك أن تتأنى قبل أن تتعجل في حكمك على ظاهر الأشياء؟ فتلك العجوز البدينة المتورمة التي لم ترها قط إلَّا غارقة ساكنة في مقعدها الكبير، عيناها مشدودتان للأمام في نظرات شاردة ساهمة، كانت في عصرها أجمل وأذكى بنات «باريس» وأحدهن لسانًا، بل أشهر من نار على علم!

وأعتقد أن أبي -الذي كان يصغرها بأربعة أعوام وهو فارق لا يستهان به في تلك المرحلة من العمر وكان قد تخرج لتوه من الجامعة- لم يكن شديد الإعجاب بها فحسب، بل بأبيها أيضًا.

فقد كان لها -برغم تجاوزها فترة البلوغ- مئات من المعجبين،

ممن هم ألمع مستقبلًا من أبي، يتهالكون تحت أقدامها ويلتمسون رضاها!

وصارحني أبي ذات يوم قائلًا:

أوشكت أن أقبل العمل في السلك السياسي خارج الجمهورية؛ اعتقادًا مني أنه قد يُرضي أمك..

فهل كانت قد سئمت السفر والترحال بين مختلف الممالك والدول؟ ربما! ولا تنس أنها كانت تنعم في تلك الفترة بمتعة الاستقرار في «فرنسا» واكتشفت ذلك لأول مرة في حياتها.

وكانت فيلا ماجالي -هي قصر «آل أيفارد» الريفي، وهناك كان أبي يزور خطيبته أيام الآحاد.

وكان أبي جميل الشكل أنيق الهندام قوي البنية ممشوق القوام. إذا قلت إنه ورث الجسم والعقل عن آبائه وأجداده، لم أكن مبالغًا. وقد ظل محتفظًا بكل ذلك، حتى بعد أن بلغ من العمر عتيًّا!

وما أريد أن أوضحه، هو أنه كان قد استهواه بريق منصب السفير ومركزه الاجتماعي العظيم، كما تاق إلى دخول ميدان المعمعة واقتحام قلب والدتك، ذلك الحصن المنيع الذي استعصى على مهاجميه ممن هو أقوى وأخطر شأنًا منه..

وربما كان قليل الأمل في الفوز بيدها؛ اعتقادًا بأنه غير جدير بها أو كفء لها، وظل يحلم بقربها حلم الظمآن للماء، وكان امتنائه لها كبيرًا حينما قبلت أن تكون شريكة حياته دون الناس أجمعين، واعتبر

ذلك نزولًا منها وتضحية عظيمة لا يستحقها.

هل كانت تشجع بنفسها ذلك الشعور فيه، لست في موقف يسمح لي بالإجابة عن ذلك، وليست لديَّ المعلومات الكافية حتى أستطيع. وأصارحك الحق، فأنا أعتقد يقينًا أنها كانت تشعر بالمتعة حينما تلمس فيه اعترافًا بالجميل الذي طوقت عنقه به.. وهي التي عاشت طول حياتها تملأ أذنيها عبارات الإطراء والإعجاب بجمالها من أكثر من مليونير، كان مستعدًّا لأن يلقي بثروته تحت أقدامها لأول إشارة أو نظرة رضاء، وانتهى بها المطاف لأن تفضل عليهم شابًّا تكبله قيود الوظيفة، محدود الدخل، تنتقل معه في مساكن المحافظات الحكومية الرطبة.. وتضطر للإنصات إلى ثرثرة عجائز الفلاحات وزوجات الزارعين والموظفين، بعد أن كانت نجمة تسطع تحت أضواء ثريات الحفلات الدبلوماسية ترمقها الأعين في حسد وإعجاب، حياة غريبة صغيرة تختلف تمامًا عما اعتادتها.

وما زلت أذكرها وهي في قمة جمالها، كانت رائعة حقًّا كأنها «فينوس»، بل إن جمال أمك ليبدو متواضعًا بسيطًا بالنسبة لها.

ولقد أنجبت أختي أولًا، وبعد ذلك بأربعة أعوام أنجبتني، وحينما بلغت الثانية عشرة من عمري وكنا قد انتقلنا لمدينة «لاروشيل»، أصيبت بذلك المرض الخبيث الذي هدم سعادة أبي وحطم آماله!

كانت في الخامسة والأربعين وقت ذاك.. وتشهد اللوحات التي رسمت لها في ذلك الحين، بأن الزمن لم يترك أي أثر في وجهها وظلت محتفظة بفتنتها وجمالها، وما زلت أتذكر أني في طفولتي،

كثيرًا ما كنت أندس بين ذراعيها وأحوط رقبتها بساعديَّ قائلًا:

- ما أجملك!

وكنت أقول لرفاق طفولتي مفاخرًا:

- أمي أجمل امرأة في الوجود.

فهل أصابتها عين الحسد، أو لعل نشاطها وحيويتها المتدفقة قد أحدثت خللًا ما في جسمها القوي؟

ومهما كان الأمر، فقد شعرت ذات يوم بالحمل، ولا بد أنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك مرة أخرى، الأمر الذي أثار الشك في نفسها.

وانطلقت لزيارة الطبيب، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامتها المشرقة، لعلها كانت تخفي ما في نفسها من قلق، بيد أنها حينما عادت إلى البيت كانت كأنما قد هبط قناع مخيف على وجهها.

وما زلت أستعيد في نفسي ذكريات ذلك اليوم، كان يوم الخميس من أكتوبر، ولم يكن عندنا مدرسة في ذلك اليوم، فألحفت عليها أرجوها أن تأخذني معها، فقالت:

- ليست زيارة الأطباء مما يبعث السرور في النفس.

وكان رجلًا طويل القامة جدًّا ذا شارب كث صغير ورأس بيضاوي مستطيل، كثيرًا ما شاهدته في حفلات الاستقبال بدار المحافظة.

كانت قد خرجت في الثالثة، وحتى الرابعة مساء لم تكن قد عادت، وتحدث أبي من مكتبه في التليفون يسأل عنها.

- هل عادت ماما؟

- لم تعد بعد.

وكرر الاتصال والسؤال عنها بعد ذلك مرتين أو ثلاثًا، ولم أكن أعلم وقتئذ أنهما كانا يتوقعان إنجاب طفل ثالث، أخ أو أخت جديدة، وكانت عمتك «آرليت» في الخامسة عشرة من عمرها، تستقبل بعض صديقاتها البنات في غرفة الجلوس.

وأذكر حينما عادت أمي وطبعت على جبيني ابتسامة شاردة، أنها لم تكن وقتئذ على ما يرام، فسألتها وأنا أرنو إلى وجهها العابس:

- ماذا قال؟ أمريضة أنت؟

- لا تشغل بالك، أشعر بتعب بسيط.

- لقد اتصل أبي عدة مرات يسأل عنك.

فابتسمت ورفعت المسماع.

- «فيليب»، هأنذا قد عدت.

ويبدو أنه وجَّه إليها سؤالًا، أجابت عليه بضحكة قصيرة مغتصبة:

- كلا، ليس ما توقعناه، أتشعر بخيبة الأمل؟

ولابد أنه قد وجَّه إليها سؤالًا آخر، فقد أجابته في عجلة:

- سوف أقول لك حينما تعود، إن «آلين» يقف بجواري، لا، لا، ليس الأمر خطيرًا فيما أعتقد.

وفاجأتهما بعد ذلك يتهامسان في أحد الأركان، وكان الوجوم يخيم علينا في العشاء، وأرسلوني لفراشي مبكرًا على غير العادة ذلك المساء.

ولم يدر بخلدي وقتئذ أني أوشك أن أفقد أمي، أو على الأقل أمي كما كنت أعرفها، وأن أبي كان على وشك أن يفقد شريكة حياته.

وفي السابع والعشرين من أكتوبر –وهو تاريخ لن أنساه وسيظل محفورًا في قلبي– انتقلت إلى إحدى المصحات المحلية، بعد أن قبَّلت أختي وقبَّلتني، وودعتنا بإحدى مداعباتها وفكاهاتها.

ولم يكن ما ظنوه حملًا في بادئ الأمر إلَّا ورمًا خبيثًا، وحينما عادت بعد أسبوعين لم يكن قد بدا عليها شيء ظاهر، حتى خُدعنا جميعًا ومضينا نتساءل عن سبب ذهابها للمصحة، كانت قد عادت لطبيعتها وراحت تتحرك في نشاط بين أرجاء البيت كسابق عهدنا بها، ولكنا بعد مضي فترة من الوقت بدأنا نلاحظ تغييرًا واضحًا يطرأ على ملامحها، فقد ظهرت التجاعيد فجأة في وجهها، وبدا على جسمها الرشيق بعض البدانة والترهل.

وأذكر أنها كانت تقول في تلك الفترة:

– أعلم أنه ينبغي أن أقوم ببعض التمرينات الرياضية، ولكني لا أشعر بأي حماس.

وأُجريت لها جراحة أخرى في مارس، وفي أغسطس كانت قد صارت من البدانة بحيث لم يعد أي ثوب من ثيابها يدخل في جسمها.

ومنذ ذلك الحين وأنا لا أكف عن بحث حالتها مع أصدقائي الأطباء، وخاصة مع كبار الإخصائيين الذين يعملون في المؤسسة معي، واختلفت آراؤهم جميعًا، كل منهم يعتقد أنه عرف نوع المرض

وسببه دون أن يصلوا إلى قرار حاسم. ولكنهم أجمعوا على أن تلك البدانة كان محتمًا حدوثها عقب الجراحتين اللتين أُجريتا لها، وقد أثرتا على وظيفتها الجنسية كامرأة، الأمر الذي كانت نتيجته الطبيعية انهيار مفاجئ في أعصابها ويأس مرير في أعماق قلبها.

ومع ذلك كله فلم أجد فيه ما يقنعني، وأشعر أنه لم يكن كافيًا لإقناع أبي، وإذا كان قد وصل بطريق الحدس والظن إلى ما وصلت أنا إليه، فلا بد أنه كان مثال الشجاعة والإخلاص والوفاء؛ إذ ظل إلى جوارها مضحيًا براحته وسعادته وحقوقه كزوج طوال تلك الأعوام التي انقضت حتى ودعها الوداع الأخير!

وحانت اللحظة التي اضطرت فيها للاستسلام، ولم تجد مفرًّا من أن تنسحب برضائها من الحياة العامة.

وقال أول مَن جاء من الأطباء لزيارتنا زيارة مفاجئة، فقد كانت ترفض دعوة أي منهم لفحصها:

– «نورستانيا» سوف تُشفى منها بمضي الوقت.

ولكنها لم تُشْفَ قط، بل مضت حالتها تزداد سوءًا، وراحت في الأسابيع الأولى تنفرد بنفسها تدفن نفسها بين جدران غرفتها، لا تكلم أحدًا أو تخاطب إنسيًّا.

ومن ذلك تدرك يا ولدي أن الشيخوخة وحدها لم تكن هي سبب تلك النظرات الشاردة الخالية من معاني الفهم والحياة، والتي روعتك وأخافتك منها، فقد سبقتُك أنا ومررت بنفس تجربتك، ولم أكن قد

تجاوزت سنك الآن، وكانت قد انزوت عنا بعيدًا في عالم خاص بها، وفقدت كل اهتمام بنا أو بأي شيء حولها.

وليس من حقي أن أحكم لها أو عليها، بل لست أملك الصلاحية التي تؤهلني لأن أكون قاضيًا، بيد أني ما زلت أذكر كيف كانت تتملكني الحيرة ويستبد بي الغضب وأنا ألمح أصدقاء أبي من كبار الأطباء يقطبون جباههم، وهم يبدون شديد تأثرهم وعميق مواساتهم لنا جميعًا.

وفي اعتقادي، أنه قد ساءها –وهي التي كانت محط أنظار الرجال– أن تفقد عرش الجمال الذي تربعت عليه طويلًا، وربما اشتد بها اليأس إلى حد الرغبة في أن تلاقي الردى حينما اكتشفت أن بعض الجراح قد حكمت عليها بالشيخوخة المفاجئة قبل الأوان. لست أدري تمامًا!

* * *

نفضت يديها من كل شؤون الدار، ولم تعد تلقي أوامرها وتعليماتها للخدم، وكنت ألمح أبي وهو يعد قائمة الطعام مع الطباخة كل صباح وقبل أن ينطلق لمكتبه، وكانت تحضر في بعض الأحايين بعض المآدب الرسمية، تجلس في صمت وفي وجهها نظرة شاردة بلهاء، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة لا معنى لها، وكان أبي –في الأيام الأولى– يضطر للاعتذار بمرضها إلى مدعويه.

ومن أجلها –رفض الذهاب إلى «فرساي»– حينما عرض عليه ليشغل منصبًا خطيرًا، كان سيتوج مستقبله العظيم، منصب مدير البوليس في «باريس»!

ولكني أسارع فأقرر لك، إنها لم تكن مسؤولة قط عن تركه منصبه الحكومي واعتزاله الحياة في ضاحية «لوفيسينيه» بين جدران فيلا «ماجالي».

كنت أنا وحدي المسؤول عن ذلك، ولم يكن لأمي أي ذنب أو يد فيما حدث أو ترتب عليه.

كان ذلك بسبب مأساة ١٩٢٨ التي أتحمل مسؤوليتها كاملة.

* * *

وربما كان من واجبي أن أشير إلى وجهة نظر شقيقتي في تلك الحالة الغريبة التي أصابت أمنا، فهي تزعم أنها تعرف من أسرار عائلتنا أكثر مني، ولا أجد مفرًّا من أن أعترف لها بذلك، فهي بوصفها كانت تكبرني سنًّا، قد كان لها من الرشد ما أتاح لها أن تعرف أمي خيرًا مني، وقبل أن يطرأ عليها ما أصابها أو لعلها في أثناء وجودها بباريس قد عرفت ما لم يصل إلى أذني.

حسنًا، إنها تقول -تحت مسؤوليتها- إن أمي لم تتزوج أبي قط لأنها شعرت نحوه بحب أو ميل إليه.. بل لأن قلبها كان قد تحطم أخيرًا على صخرة غرام فاشل أطاش صوابها، فاندفعت دون تفكير تلتمس اليابسة، أي يابسة تعرض لها بين الأنوار، وهكذا اقتنصها أبي، وبرغبتها ابتعدت عن «باريس» مهد الحب والجمال منزوية عن الأضواء، كما تفعل أي راهبة حينما تدفن نفسها باختيارها في أحد الأديرة البعيدة عن العمران!

أما تستطيع أن تقدر مدى التضحية التي أقدمت عليها حين تركت الحياة في «باريس» حيث الحفلات والسهرات وحياة السفارات، لتدفن نفسها في إحدى محافظات الريف مع موظف صغير؟ إنها لم تتزوجه أملًا في مستقبل زاهر مشرق، بل تزوجته هربًا من ماض مكروه، ومما يؤكد لك ذلك أنها حينما خطبها أبي لم يكن قد حدد بعد مستقبله وميدان عمله، وكان في وسعه أن يشغل وظيفة ممتازة في وزارة الخارجية، أو على الأقل منصبًا ثابتًا محترمًا في العاصمة «باريس» نفسها، لكنها أصرت على أن يقبل تلك الوظيفة الإدارية في المحافظات، حيث تنتقل من محافظة لأخرى في أعماق الريف، وكأنما هي تتعمد الانتقام من نفسها!

وحينما بدأت أحتج معارضًا، استطردت تقول:

- لم تكن وقت ذاك إلَّا طفلًا صغيرًا، تنظر إلى الأمور في سذاجة وبراءة بلا دهاء أو عمق في التفكير، لم تذهب قط إلى المآدب والحفلات التي كان يقيمها أبواك في دار المحافظة، حتى ترى كيف كانت تبدو مشحونة الطاقة، لكنها طاقة مصطنعة، ومرح مفتعل يخفي خلفه مرارة مدفونة في أعماق قلبها، كانت تمثل دور المضيفة السعيدة التي تطير بشرًا وسرورًا أمام طائفة من العجائز الثرثارات وبناتهن العوانس ممن فاتهن قطار الزواج! ألَّا تدرك إذَنْ أنها كانت تسخر منهن في أعماقها ومن نفسها أيضًا.

ربما كان ذلك صحيحًا، بيد أني أعتقد -وأبحث عن وسيلة في نفسي حتى أعتقد- أنها كانت تحب أبي برغم كل ما سمعت.

أما هو؛ فقد كان شاكرًا لها -مدى حياته- اختيارها وتفضيلها إياه دون سائر المعجبين بها، وكان يعتبر نفسه مسؤولًا عن توفير كل أسباب السعادة لها، ويرى -والحزن يقطع نياط قلبه- أنه سبب ما أصابها من مرض وخبل!

وأرجو ألَّا يكون هذا غير مفهوم لك، إذا قرأته قبل أن تتسلح بالتجربة والإيمان، بيد أن هناك من الحقائق ما قد تبدو عسيرة الهضم، ثقيلة التفسير والفهم، وقديمًا كان هناك «بوسيس» و«فيلمون» الإغريقي أو «ناعسة» وزوجها «أيوب» المصري: «بوسيس» أو «أيوب» يسقط صريع المرض، ويتورم جسمه ويمتلئ بالبثور وما تحت جلده الباهت بالماء العفن، ويبدو كجيفة كريهة المنظر والرائحة تشمئز منه الناس، إلَّا حبيبته «فيلمون» الإغريقية، أو «ناعسة» المصرية، تضحي كلٌّ بأعز ما تملك في سبيل إرضائه ورعايته وتمريضه!

كذلك قررت لي شقيقتي -في صيغة التأكيد- أن أمي لم تحبنا قط. لا أنا ولا شقيقتي، وكنا في نظرها شرين لا بد منهما، ضاعف من رباطها بالرجل الذي لم تشعر نحوه بأي حب!

وأكاد أميل إلى الأخذ بوجهة نظرها حينما أتلفت حولي فيما يحيط بي، فأبدأ أرتاب بدوري في احتمال أن الحب الأموي حقيقة قائمة في قلب كل أم! لا أنكر أنها عاطفة غريزية موجودة فعلًا، ومع ذلك فإنني أقطع بأن كثيرًا من الأمهات لا يشعرن به أبدًا، أو ربما لفترة بسيطة مثل أم الحيوان حتى ينتهي دور الفطام!

والعهد ليس ببعيد على تلك القضية التي شغلت الرأي العام

وأثارت سخطًا شعبيًّا أشبه بالعاصفة المدمرة، امرأة لا تزال في عمر الزهور قرر جميع علماء النفس أنها في حالة عقلية طبيعية ومسؤولة تمامًا عن كل تصرفاتها، قتلت وحيدها الذي لم يتجاوز الثالثة من سنيّ حياته، لا لسبب سوى أن محبًّا لها تحداها أن تفعل ذلك لتبرهن على شدة حبها له!

ولعل مما أثار عاصفة السخط والدهشة في نفوس الناس، هو ندرة وقوع أمثال تلك الحوادث، حتى في حال وقوعها فنحن -لأننا نتبع مقاييس أخلاقية معينة- ننظر إلى الجانية باعتبارها أمًّا مجنونة فقدت عقلها، أو سفاحة مصاصة للدماء!

ثم ألم نفتح أعيننا فجأة لنكتشف خداع أوهام طفولتنا حينما نكتشف حقيقة العلاقة التي تربط بين آبائنا وأمهاتنا، وندرك أنها ليست بتلك الطهارة المثالية الملائكية التي تخيلناها في أحلامنا وقرأنا عنها في القصص الخرافية الصغيرة؟

لقد لاحظت ذلك بنفسي حينما رأيتك تنكمش وتحجم عن تقبيل أمك أو دخول غرفة نومنا وأنت بعد صغير جدًّا، كنت أعرف مدى ما وصلت إليه اكتشافاتك وإن لم يظهر ذلك على وجهك؛ لأن الطفولة البريئة والخجل الغريزي صنوان لا يفترقان!

* * *

الفصل السادس

وأخيرًا قد أزفت اللحظة الحاسمة حيث لا أجد مفرًّا من أن أحدثك عن صديقي «نيكولاس» وأيام طفولتي التي يعتبر ذلك الاسم مرتبطًا بها أيما ارتباط، بل رمزًا وعلمًا عليها، ولسوف يساعدك ذلك على فهم بعض تصرفاتي إزاءك، وتبرير كثير من الأسئلة التي كنت أوجهها إليك، والتي طالما أثارت غضبك!

– هل تعرفتَ بصديق جديد؟

كانت ظنوني تصدق كلها دون حاجة لأن أزعم في نفسي السحر أو التنجيم! فحينما تبدأ في استعمال إشارات بيدك جديدة عليك، أو تعبيرات ومصطلحات لم تكن تعرفها أو تغير شيئًا من مظهرك: طريقتك في تنسيق شَعرك، أو عقدك رباط رقبتك مثلًا، أفهم أنا في الحال أن عنصرًا جديدًا قد دخل في إطار حياتك. وربما أغاظك أني كشفت ذلك الطارئ الجديد عليك، الأمر الذي يُفهم منه أنك ضعيف الشخصية، سريع التأثر بالغير برغم أني كنت أحاول قدر جهدي أن أكيف أسئلتي في لباقة وبطريق المداعبة كما يفعل الأصدقاء وبلهجة رقيقة هينة، حتى لا أهيج شعورك أو أثير انتباهك.

وعلى عكس ذلك تمامًا، كانت تفعل والدتك. فهي أجرأ مني وأحدُّ لسانًا؛ لأنها تعتنق مبادئ مستقيمة صريحة في التمييز بين الصواب والخطأ، وفيما ينفعك أو يضرك، ولا تؤمن بالأشياء الوسط أبدًا، ومن ثم فهي ترى أن من حقها عليك أن تختار بنفسها أصدقاءك.

وهي لا تكف أبدًا عن اتهامي بأني أتخاذل في أداء واجباتي الأبوية حيالك بترك حبل العنان لك، وإني لأرجو من كل قلبي ألَّا تقودك قدماك فتقع في مأزق يهدد مستقبلك، حتى لا ألومن نفسي وأحملها تبعة ذلك.

ولا أُخفي عنك أني أخشى ذلك اليوم، بل إن مجرد التفكير فيه يقلق منامي ويزعج أحلامي، وكلما صلب عودك واشتد ساعدك وطالت قامتك، اشتد خوفي عليك، ولا أحسب إلَّا أن كل الآباء في مثل حالتي: أكبادهم تسعى على الأرض، ومع ذلك فربما كنت أكثرهم حساسية.

ومهما كان الأمر، فلو كانت أمك مكان أبويَّ، ما استطاعت أن تحول دون نمو صداقتي «بنيكولاس»، ولا أذكر لقبه لأسباب سوف تعرفها فيما بعد.

وقد تعرفت به بحكم الزمالة –وأنا في «ليسيه لاروشيل»– حين كنا في الفرقة الخامسة، وظللنا ثلاث سنوات كاملة لم تتعد علاقتنا زمالة الفصل العادية التي تحدث دائمًا بين التلاميذ.

كان أطول مني قامة، أحمر الشعر، بجلد يديه ووجهه بقع حمراء صغيرة، لكنه كان يمتاز بعينين زرقاوين باهتتين، فيهما رقة وجاذبية.

وعلى خلاف ما تعتقده، أو يظنه غيرك من الناس، ليس مما تحسد عليه أن تكون ابنًا لمحافظ الإقليم وأنت بعد طفل صغير في أول مراحل دراستك، ما من شك في أنه قد يسرك أن تجد كل من حولك يخاف أن يلمسك النسيم، وفي مركز ممتاز ووضع فريد، لكنك تلقي نفسك في جو مشحون بالحسد والكراهية وسوء الظن من رفاقك الصغار، يخشون الاقتراب منك ويتحاشونك، وكأن بك جربًا! ومن ثم كنت تراني -بدل أن أزهو وأفخر بمنصب أبي الكبير- أبدو متواضعًا وديعًا كالحمامة، أكاد أعتذر عن «جرم» لا ذنب لي فيه، حتى أحطم ما بيني وبين أصحابي من حواجز تحول دون خلق جو من التفاهم والصداقة!

وما كان ذلك تكلفًا مني أو تظاهرًا، بل هو الحياء الذي ولد معي والخجل الغريزي الذي لم أستطع أن أتخلص منه حتى الآن. كنت أتوق دوامًا إلى الانسحاب من وسط الزحام والانكماش داخل قوقعتي، مثلما فعلت أمي ذات يوم، وانسحبت من الحياة العامة تمامًا وإلى الأبد.

وكم أحب أن أصف لك شعوري وأرسمه لك في لوحة بارزة بألوانه الطبيعية، ولعلك لم تلاحظ بعد أن أول ما يفعله الطفل حينما يتعلم أن يمسك القلم ويحاول أن يجري به على الورق -هو أن يصنع مربعًا مغلقًا يمثل بيتًا يعتقد في أعماق لا شعوره أنه بيته الذي يملكه، وذلك المنظر نراه دائمًا على شاطئ البحر حينما يشرع الصغار في بناء بيوت من الرمال، كذلك كنتَ تفعل ذلك.

ومن ثم فإن أول ما يلتصق بذاكرة الإنسان هو البيت الذي يعيش

فيه بأدق ما فيه من دقائق وتفاصيل. سواء أكان بيتًا ريفيًّا عشًّا أو كوخًا من القش أو فيلا أنيقة أو شقة رائعة في «باريس»، أو قصرًا منيفًا به غرف خاصة للبواب والخدم ومصعد أو درج، وطنافس تغطي الأرض من المدخل، أو كان أرضًا عارية من الحجر أو الملاط!

أما أنا، فقد اعتدت كلما عدت من مدرستي أن أجد الباب غاصًّا بالشرطة يؤدون لي التحية في احترام، وعلى جانبي الدرج لوحات إرشادية عليها أسهم تشير إلى كل اتجاه:

«الطابق الأول- القسم الثاني- المكاتب الإدارية على اليسار».

«الطابق الأول- القسم الثالث- شؤون الزراعة والفلاحين على اليمين».

«قسم المستشفيات- الإدارة الصحية- إدارة العمل- إدارة الإسكان».

«في الجهة الأخرى من الفناء -الدرج رقم (جـ)...».

فقد كنا محوطين بكثير من الأبهاء والممرات وأكثر من درج، تهب منها التيارات الهوائية، وما زالت ذكراي الأولى عن أبي مرتبطة بصورة أحد السعاة، وهو رجل أشيب عجوز يجلس إلى نضد صغير أمام الباب المغطى بطبقات اللباد والمطاط.

وكان الطابق الذي نشغله لسكنانا متسع الأرجاء مرتفع السقف جدًّا، وطالما سمعتهم يصرخون بي: «حذار أن تلوث السجادة!».

كانت التقاليد تقضي بأن تُغطى كل الجدران بقطع من السجاد

النادر، ومجموعات من الأطباق الثمينة الملونة واللوحات الزيتية الرائعة، مما يليق بمقام المحافظ.

وكلها أموال أميرية لا نملك منها شيئًا، فكل أثاث البيت مملوك للدولة!

- أُش!

وترفع مربيتي سبابتها إلى فمها محذرة:

- لا ترفع صوتك، إن السيد المحافظ يستقبل ضيوفًا.

لم أكن مثل باقي أطفال هذه الدنيا ومَن لهم أب وأم، أشقاء وشقيقات، خادم أو مجموعة من الخدم والوصيفات، كنت محاطًا بمجموعة من الناس أكرههم جميعًا، وأعتقد أنهم يمارسون سلطات كريهة لتقييد حريتي والحد من حقوقي الطبيعية في ساعات طعامي وشرابي ولهوي ونومي، يحركونني كالدمية أينما وحيثما شاؤوا، حتى في سويعات رغبتي في لقاء أبي وأمي!

فتلك النعم والميزات التي كان رفاقي الصغار يحسدونني عليها، لم تكن في نظري إلَّا لعنة بغيضة إلى نفسي، وددت لو أفر منها إلى عالم أتمتع فيه بشيء من المرونة والحرية!

كل إنسان ما عدانا، وما عداي كان له الحق في أن يستحوذ على وقت أبي واهتمامه، أولهم وأشدهم جرأة هو المسيو كورنير مدير مكتبه الخاص، ثم سكرتيره الخاص، ويليه مديرو الأقسام، وكانوا أربعة من الكبار، ثم كبار الزوار من الحيثيات الذين يفدون للمدينة،

وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب في المقاطعة والبارزون من زعماء النقابات ومن الناخبين وأخيرًا أصحاب المظالم والشكايات.

وربما أتيح لنا بعد لَأْيٍ وجهد شديد أن نجلس معه مرتين كل أسبوع على مائدة العشاء نتناول معه الطعام في جلسة عائلية خاصة، وحتى ذاك لم تكن نهنأ به، فكثيرًا ما كانوا يطلبونه للتليفون، فيترك طعامه أو ينهيه على عجل؛ ليستقبل شخصًا ما في مهمة سرية عاجلة.

وفي الثانية عشرة من عمري، كان قد بلغ ضيق صدري من تلك الحال حدًّا كبيرًا، حتى كدت أشعر بعدم الرضى نحو أبي لرضاه بذلك الذل وتلك العبودية التي تكبله بقيود حديدية لا يستطيع منها فكاكًا، والتي تحول دون أن يستمتع بحياته العائلية، ودون أن أستمتع به بوصفه أبي، يرعاني ويوليني نصيبًا من حبه واهتمامه كما يفعل سائر الآباء!

كان رفاقي في المدرسة يحسدونني أو يغبطونني على تلك التحيات العسكرية التي ألقاها من الشرطة أينما ذهبت، دون أن يخطر ببالهم أزمتي النفسية الخانقة التي كنت أمر بها، مما يجعلني أكثر منهم حسدًا لهم.

وبطبيعة الحال بمضي الوقت ولما اشتد عودي ونضج تفكيري، اكتشفت مدى ما كنت أتخبط فيه من أفكار سوداء خاطئة. وما أردت إلَّا أن أصور لك يا ولدي طريقة تفكيري وأنا في مثل سنك!

والإقامة في دار المحافظة فرصة طيبة تسنح للإنسان، حتى يرى كل ما يدور على المسرح من خلف الكواليس، شاء أو لم يشأ، وينظر بعينيه كيف يجذبون الخيوط الرفيعة التي تحرك الدمى!

ولقد حدثتك في مرة سابقة كيف حصلت على وسام «اللجيون دونور»، وذكرني ذلك بمحادثة تليفونية سمعتها ذات يوم، كان أبي يضع المسماع على أذنه منصتًا، وهو في الوقت نفسه يقرأ باهتمام في صحيفة منشورة أمامه، لم يكن لها أدنى صلة بتلك المحادثة، وكان صوت الرجل في الطرف الآخر عميقًا به رنة من الإلحاف والرجاء.

وكان أبي يغمغم من وقت لآخر، وهو يتابع بعينيه ما في الصحيفة.

– نعم، نعم، فهمت...

وما زلت أراه الآن وهو يجري بقلمه الأحمر خطًّا عريضًا تحت بعض العبارات فوق الصحيفة، وأخيرًا وبعد أن انتهى الطرف الآخر من حديثه، سمعت أبي يقول:

– أواثق أنت من أنه لن يرضى بوسام (سعف النخيل)؟ نعم، نعم، فهمت، حسنًا يا سيدي العزيز، اتفقنا، سوف أنقل طلبك للسيد الوزير طالما هذا رأيك، وتعتبره مهمًّا، وتستطيع أن تعده بوسام الصليب!

ذلك مثل واحد من بين الآلاف، فما كان يعتبره الناس سرًّا خطيرًا، إنما هو أمر عادي بالنسبة إلينا، حتى لصبي في مثل سني..

– نعم، نعم، أواثق أنت من عدم حصول تلفيات؟ سأتصل فورًا بمدير الشرطة، طمئنه يا صديقي العزيز، قل له ألَّا يقلق، فسوف يتم كل شيء على ما يرام.

وكنت أعتقد في بادئ الأمر أن أبي مخادع كبير، أو رجل شرير يستعمل نفوذه القوي في عرقلة سير الأمور على حسب طبيعتها،

فشعرت نحوه بالغضب.

حتى بين جدران مدرستي لم يكن ضميري مرتاحًا، وطالما ساورتني الظنون بأن ما ألقاه من تظرف رفاقي وتلطفهم معي ليس أمرًا تدفعهم إليه سجيتهم، بل لا بد أنهم مدفوعون إلى ذلك من أولياء أمورهم؛ لأن لهم ملتمسات يبغون تحقيقها من أبي، وامتدت تلك الظنون إلى أساتذتي حينما رأيت أحدهم يخرج من مكتب أبي في المحافظة، وقال أبي لنا ونحن على مائدة الطعام:

– مسكين هذا الشاب! الأطباء يقولون إن هواء البحر يفسد صحته، وبرغم ذلك يصدر مدير التعليم أمرًا بنقله إلى هناك! لقد وعدته بأن أوصي بنقله إلى «سافواي» كما يريد ويحب.

وآباء أصدقائي الصغار كانوا يستغلون فرصة صداقتي، ويعتمدون بأي طريقة على تنفيذ مآربهم وتسهيل مصالحهم من أبي، وشعرت بحقارة شأني وضعف شخصيتي أمام الناس جميعًا، فلو لم أكن ابن المحافظ ما أعارني مخلوقٌ فتيلًا!

وكنت أشعر برغبة شديدة في أن أصيح قائلًا: «ذلك غش وخداع، خداع!».

بيد أن أبي لم يكن مخادعًا، كان يؤدي رسالته في أمانة وإخلاص وضمير يقظ، ذلك ما اكتشفته بعد حين!

وكنت أنا الجاهل الأحمق الذي سمحوا له برؤية أبطال القصة من خلف الكواليس، ولم يفهم قيمة ما يؤدون من أدوار سامية، بل اكتفى

بالتفرج عليهم وهم يرتدون الثياب ويضعون المساحيق والألوان.

ولذلك لم أنكر تلك العبارة التي سمعتها يومًا ما من أنَّ عالمنا يتألف من نوعين من الناس: فريق يؤدي رسالته الكاملة على أتم وجه، وفريق آخر إنما يعيش على هامش الحياة، كأشباح تتحرك بلا هدف مرسوم!

وفي تلك الظروف النفسية التي أوضحتها لك، التقيت «بنيكولاس»، واتخذته لي صديقًا.

ولم أكن قد ألقيت إليه انتباهًا خلال ثلاث سنوات كاملة وهو معي في المدرسة.

ففي كل فرقة دراسية تمتلئ مقاعدها الخلفية ببعض التلاميذ الذين لا وظيفة ولا عمل لهم إلَّا ملء الفراغ، حتى إن المدرسين في أغلب الظن لا يشعرون بوجودهم!

وكان «نيكولاس» أحد هؤلاء، بطيء الذكاء فاقد الحماس للدراسة، يحتل دوامًا مقعدًا خلفيًا ينزوي فيه لا يضر أحدًا ولا يضره أحد! فلم يكن من بين أولئك الذين لا يكاد ناقوس المدرسة يدق، حتى يثبوا على درَّاجاتهم منطلقين إلى ضواحي المدينة أو الحقول، كذلك لم يكن من بين تلك المجموعات أو الشلل التي تسير معًا في المدرسة في طريقهم لبيوتهم.

ولم يسترعِ انتباهي -على وجه التحديد- إلَّا ونحن في الفرقة الثالثة «الصف الثالث»، حين صار هواية لا يستغني عنها مدرس اللغة

الإنجليزية كل صباح! ولقد علمت بعد ذلك عن هذا المدرس -الذي فصلته إدارة التعليم لعدم صلاحيته للتدريس- أنه كان يعاني الأمّرين من فظاظة زوجته ومعاملتها الخشنة له.

كان صاحبنا المدرس يخشى سخرية التلاميذ وسلاطة ألسنتهم، فلم يجد طريقة يحمي بها نفسه سوى أن يختار من كل صف تلميذًا بليدًا ضعيف الشخصية يجعله ضحيته طوال العام؛ ليجعله درسًا لجميع التلاميذ، حتى يبث في قلوبهم الخوف ويدفعهم إلى احترامه طبقًا للمثل المعروف: اضرب المربوط، يخف السائب!

ففي كل حصة له، كنا نشهد فعلًا بينه وبين «نيكولاس» ما كنا نتوقعه لطول ما اعتدنا، ويظل الصبي الصغير واقفًا على قدميه، وقد احمر وجهه والتهبت أذناه!

وعرفت من ملاحظات المدرس أن «أم نيكولاس» كانت تفتتح متجرًا تبيع فيه كل ما يلزم الأطفال قبل الفطام من القصاري والمناشف والمفارش، الأمر الذي كان يبعث على النكات السخيفة والتعليقات الرخيصة من أستاذنا المحترم، ومن جرى على شاكلته من التلاميذ!

وعرفت ذلك المتجر، وكان في شارع «جيتو» بين محل قصاب اعتدنا أن نشترى منه ما يلزمنا من اللحوم، ومتجر لبيع الأدوات الجلدية، وسرعان ما كنتُ أعود من ذلك الطريق بصحبة «نيكولاس» في أغلب الأيام.

وكان أبوه قد مات بين جدران مستشفى المجاذيب، وهو شخص برغم أنه كان يبدو أقوى مني وأكثر بدانة، كان قد أمضى عامين يعالج

من مرض في صدره في إحدى المصحات الجبلية، مما جعل أمه تخشى عليه من التعرض لأي تيار هوائي، وتنزعج لو أصيب بلمسة برد، كان قد سمع وقاسى طويلًا من المرض مما جعله يتمنى من أعماقه، بل عقد العزم فعلًا على أن يصير طبيبًا.

وكان يضيف: «هذا إذا استطعت أن اجتاز اختبار البكالوريا طبعًا!».

كان يقولها في شبه يأس؛ لعدم ثقته في نفسه!

وبقدر ما كان طويلًا عريضًا، كانت أمه نحيلة القوام ضئيلة الجسم، شاء القدر أن تترمل وهي بعد في ريعان شبابها، فمضت تكسب قوت يومها في ذلك المتجر الصغير من أدوات الأطفال ولوازمهم.

وكادت تطير من الفرح والعرفان بالجميل حينما عرفت أنني قد اتخذت ابنها رفيقًا لي، ولم تنسَ قط أن أبي هو محافظ الإقليم، مما جعلني أشعر بعدم الارتياح.

ومما ضاعف ارتباكي أنها ما تكاد تراني أحضر برفقة ابنها لعمل الواجب المدرسي معًا، حتى تهرول إلى نصف الدكان الخلفي، وتسرع بتنظيفه وإعداده، حتى يبدو في مظهر لائق!

- يخيل إليَّ أنك جوعان يا مستر «آلين»؟

واقتضى الأمر شهورًا، واضطررت أن أحدث «نيكولاس» مرارًا، حتى كفت والدته عن أن تدعوني بلقب «السيد» ومع ذلك كانت تفعل ذلك مكرهة، ولم تستطع أن ترفع التكليف معي قط.

– لقد شاهدت الآنسة «لافرنسوا» تمر من أمامي توًّا مع بعض صديقاتها الصغيرات، يا لها من شابة جميلة! وما أروع ثيابها أيضًا!

ولم أتأثر قط بشخصية «نيكولاس»؛ لأنه كان فاقدها، وفاقد الشيء لا يعطيه! كان مثل أمه راضيًا آخذًا نفسه بالقناعة والاستسلام، يأخذ الحياة كما هي دون تبرم أو احتجاج، حتى تلك المعاملة الشاذة التي كان يلقاها من مدرس الإنجليزية لم تكن تثير فيه أي شعور بالضيق أو الغضب على كرامته!

وأعتقد أنه كان سعيدًا، وأكبر الظن أنه لا يزال كذلك في قرية «شارنتي»، حيث قيل لي: إنه الآن طبيب ناجح، وقد ضم إلى جانبه والدته لتقضي معه أيامها الأخيرة في هدوء.

– أتسمح لي بأن أسألك يا سيد «نيكولاس» فيمَ تحلم الآن؟

وأستطيع أن أتخيله جالسًا إلى قمطره بجوار النافذة وقد فاجأه الأستاذ بسؤاله فانتفض مذعورًا، وراح ينظر حواليه في بلاهة وارتباك ويغمغم:

– آسف يا سيدي!

وكان الوحيد الذي لا يناديه المدرس باسمه مجردًا من باب السخرية.. طبعًا..

وعلى أي حال، فقد كانت علاقتي به طيبة، وتوقفت صداقتنا شيئًا فشيئًا، وانسحبت من المجموعات الأخرى، ولم أكن في الحقيقة أنتمي لأي منها، ولم يعد لي بين الرفاق صديق سواه، وظلت علاقتنا

معًا فترة طويلة.. حتى عام ١٩٢٨، ومع ذلك فلم أشعر قط طوال هذه المدة بأني في حاجة لأن أشركه في تفكيري أو أبثه أسراري أو أفتح له مغاليق قلبي.

كل ما كنتُ أبغيه، صديقٌ أجده وقتما أريد، أقضي معه سويعات فراغي دون أن يتضايق أو أثقل عليه بصحبتي.

* * *

كنتُ وقتئذ -غير مؤمن بوجود أي نوع من الصداقة الحقيقية لطول ما شاهدت من نفاق في المحيط الذي كنت أعيش فيه.. وكثيرًا ما كنت أسمع أبي يتكلم في التليفون:

- مرحبًا بصديقي العزيز! لا، لا، أرجوك لا تكلف نفسك عناء الحضور، يكفي أن تبعث أي إنسان إلى مكتبي صباحًا، ستكون الأوراق جاهزة، نعم، تحت أمرك أيها العزيز!

فثمة فريق من الناس كل الأمور ميسرة لهم، وحوائجهم مقضية حتى دون أن يجشموا أنفسهم عناء السعي وراءها، على حين كانت دهاليز المحافظة وأبهاؤها تبدو أغلب الأحيان مزدحمة بالعجائز من السيدات القرويات اللاتي يتعلقن بأهداب أي شخص يمر بهن، متسائلات:

- هل تخبرني يا ولدي؟ أين أستطيع أن أحصل على معاش شيخوختي؟

وقد ترى خارج الأبواب الأخرى طوابير طويلة من الرجال،

ثيابهم رثة، وذقونهم لم تحلق، وكذا بعض النسوة يحملن هياكل نحيلة يسمينها أطفالًا.. برزت عظامهم وجفت جلودهم فقرًا وإملاقًا.

وما كنت ألوم أبي على ذلك، لكني لم أكن فخورًا بمنصبه أو بمدى ما يجمع بين يديه من نفوذ وسلطات، وأنا أراه يبدي شديد اهتمامه بطراز خاص من الناس، يبتسم لهم ويناديهم بقوله «صديقي العزيز»، عبارة كانت كالقذى في عيني لطول ما كرهت سماعها، وقد يدعوهم أحيانًا على المائدة يشاطرهم الطعام!

وفي تلك الأيام كانت في «لاروشيل» شخصية بالغة الأهمية، تحمل اسم «بوريل»، لعبت دورًا هامًّا في مأساة عام ١٩٢٨، ومن أجل ذلك أراني مضطرًّا أن أشير إليه في حديثي.

وبالرغم من أن ذلك الشخص لم يكن موظفًا رسميًّا، وبلا أي شهادة أو حرفة. فقد كان وحده بمثابة قوة معارضة هائلة تعرقل مشروعات أبي وتقض مضجعه، وكان بي شعور خفي بأن أبي يكرهه من أعماق قلبه، ومع ذلك يحاول عبثًا مهادنته وملاينته بلا نتيجة بتاتًا.

وإذ كان أبوه صائد سمك بسيطًا، فقد بدأ حياته في البحار وعمل ربانًا لإحدى السفن التجارية المملوكة لبعض الأهالي والتي تستخدم في نقل الفحم إلى «إنجلترا»، ولست أدرى ما الذي حدث تمامًا؟ لأني لم أهتم بالبحث عنه في ذلك الحين، وكل ما أعرفه أنه أُرغم ذات يوم على تقديم استقالته.

وكان في الأربعين من عمره، فمضى يقضي ليله ونهاره على

شاطئ البحر، وفي سوق السمك بمرفأ «باليس»، وعلى المقاهي المحيطة بالميناء وخاصة عند «أميل»، حيث كانت له مائدة خاصة في أحد الأركان بجوار النافذة.

كان بدين الجسم ناعم الشعر قليل العناية بثيابه أو هندامه، وحينما أبصرته عيناي أول مرة بعد أن سمعتهم يذكرون اسمه في بيتنا، كدت أصعق لمظهره البريء، فلم يكن يبدو عليه أي شراسة أو فظاظة في الخلق، كان في منظره ما يذكرني بصديقي «نيكولاس»، من العينين الزرقاوين بما فيهما من طيبة ودعة، لولا أنه كان يضع عوينات سميكة عدساتها غليظة كأنها تلسكوب!

وليس من السهل على المرء أن يحدد الدور الذي كان يلعبه «بوريل» في الحياة العامة وفي السياسة المحلية، من غير أن نذكر ما كان يطلقه عليه كلا الجانبين معًا -الجانب الذي يؤيده، وذاك الذي يعارضه- من الشائعات.

فحماة القانون والنظام، الحكومة والمحافظ، وأصحاب السفن، والناس من أمثال والدة «نيكولاس» يقولون إنه فوضوي خطير، رجل لا يحلو له الصيد إلَّا في الماء العكر، إرهابي أثيم يجد لذة كبيرة في إثارة القلاقل والشغب.

وحتى أفراد هذه الطائفة يعترفون بأن ما يبدو عليه من طيبة وبراءة ونبل، ليس إلَّا ستارًا لما يخفيه في نفسه من ذكاء ودهاء الشياطين. وعقلية قانونية ماكرة كثيرًا ما هددت الأمن ووضعت الأجهزة الحاكمة في وضع حرج بالغ الدقة.

أما الباقون فهو في نظرهم بطل قلمَّا يجود التاريخ بمثله، جمع بين الثقافة والتجربة، ركل منصبه في قيادة عابرات المحيط؛ ليقود شعبه نحو النصر، تواضع وتدلى من مكانه السامي ليجلس بين أهل قريته ومواطنيه وذراعاه مفتوحتان لهم يضمهم بين أحضانه، ينصت إلى شكاياتهم ومظالمهم بآذان مصغية واعية، ولا يتوانى أبدًا في بذل المعونة والنصيحة بلا مقابل!

ورث عن أبيه نصيب الثلث أو الربع في بعض قوارب الصيد، ولم يكن ذلك كافيًا أو ليقيم أوده، فقد كان زوجًا ولديه ثلاثة أو أربعة أولاد، أحدهم دخل «الليسيه» في السنة التي تخرجت فيها، وكان يسكن في بيت صغير وسط فضاء كبير من الأراضي المهجورة.

من أين كان يحصل على المال ليغطي نفقاته ومصروفاته؟ أمن صندوق اتحاد عمال البواخر الذي كان يتزعمه بطريقة غير رسمية؟

وبالإضافة إلى عمال البواخر «لاباليس»، ورجال شحن الفحم في المرفأ، امتد نفوذه أيضًا إلى جميع صيادي الأسماك في أعالي البحار، حتى قيل: إنه كان في وسعه -بإشارة خفيفة من يده أن يحدث إضرابًا شاملًا في جميع وسائل الشحن والتموين والصيد لو أراد!

لم أعلم بكل ذلك إلَّا قبيل معركة الانتخابات الأخيرة بفترة وجيزة، حيث رأيت أبي يستقبله بعد العشاء عدة مرات في مكتبه، وكان في كل مرة يخرج من لقائه قلقًا مهمومًا، هل كانا يعقدان اتفاقًا؟ وهل كان أبي -بوصفه ممثل الحكومة- يشتري حياد الرجل؟ وإلى أي مدى ذهب في محاولة إقناعه.

لست أدرى عن ذلك شيئًا يا ولدي، لا أكثر مما تعرفه أنت عن أسرار عملي.

وكلما امتد بالإنسان العمر، وحنكته التجارب، أضاءت أمام أبصاره آفاقًا كانت من قبل غوامض مجهولة لا يستطيع لها إدراكًا أو تفسيرًا.

وكلما تذكرت «بوريل»، تمثل في خاطري شخصًا خرافيًّا تتناقله الأساطير، رمزًا يخلد قصة الثورة والنضال؛ ولذلك كنت أُكِنُّ له في نفسي قدرًا من الاحترام.

وأرجو ألَّا تسيء الفهم، فما كان لي شأن بما يدور، ولم أكن في سن تسمح لي بإبداء آرائي علانية، أو الانحياز إلى فريق دون فريق.

كان أبي يمثل السلطة التي تحكم، ومن بعده السيد «كورنير»، ثم العم «فاشيه» بعد ذلك بفترة طويلة.. وما يتبعهما من جهاز إداري يمثلان السلطة التنفيذية، ومن خلفهما أصحاب المصالح الذين يؤيدون النظام؛ رعاية لمصالحهم وخوفًا من زوال نفوذهم، ومن ثم يحرصون على بقاء الأحوال كما هي.

ومن وراء كل هؤلاء يقف أمثال والدة «نيكولاس»، ببيتها الصغير النظيف وخلف متجرها البسيط الذي تبيع فيه لوازم الأطفال -يمثلون الطبقة «الطيبة» من الناس يطيعون دون مناقشة؛ لأنهم جبلوا على الطاعة.

ولا تعجب إذا علمت أن الأمور كانت تختلط في رأسي بالرغم

من أني كنت أعيش وسط الدائرة التي تحترف السياسة وتناقش بعمق وصراحة أمامي كما كان بين ضيوفنا أعضاء الشيوخ والنواب أو زعماء النقابات والبارزون، ومع كل ذلك فما كنت أهتم بتمييز طائفة دون أخرى.. أو أعني ببحث أسباب الخلافات التي كانت تصنع هوة عميقة بين اليمين واليسار، حتى الموضوعات السياسية التي كانت الصحف تفرد لها أعمدة طويلة لم تكن تثير في نفسي أي فضول، بل تبعث فيها الملل والضيق.

ولكني كنت عدوًّا للحركات الانقلابية الثورية التي تهدف إلى تغيير أي نظام استقرت رواسيه وهدمه، وفي الوقت نفسه كان قلبي دائمًا في صف المحكومين أكثر من الحاكمين، أو إذا شئت صراحة أوفر: مع المظلومين لا مع الطغاة الظالمين!

وكنت أشعر بارتياح عميق لصداقتي «بنيكولاس»، وربما كان من أهم أسباب ذلك أنه لم يكن يحشر أنفه أو يسأل عما لا يعنيه، لم يهتم قط بالسياسة أو بالمعركة الانتخابية التي استعر أوارها وقت ذاك، ولا يفكر إلَّا في أمل وحيد يشغل باله، هو حصوله على البكالوريا التي كانت بالنسبة له حلمًا بعيدًا، ومعجزة كبيرة عسيرة المنال والتحقيق! فإذا ما حطم ذلك العائق العتيق، انطلق إلى دراسة الطب في «بوردو» التي تقيم فيها إحدى عماته، ثم يستقر نهائيًّا في إحدى ضواحي «لاروشيل» يمارس عمله دون ضجة؛ لأن أمه كانت تحلم بقضاء آخر أيامها بين أحضان الريف.

وكان قلبه الكبير يتسع لحب الناس جميعًا، ينظر إلى الدنيا من

خلال منظار وردي بهيج.

وربما كان سبب فرحته وسعادته وتفاؤله أنه أمضى جزءًا من طفولته معزولًا في مصحة صدرية بين الحياة والموت، حتى إذا ما كتبت له النجاة، شعر كأنه ولد من جديد، وأن الله قد بعثه مرة أخرى «كان كاثوليكيًّا»، وكلما وجد من وقته فرصة من فراغ كل صباح، هرول إلى الكنيسة ليحضر القداس.

وكما لو كان بيننا اتفاق مشترك، فلم نكن لنتحدث أبدًا في السياسة، أو الدين، وإن كان قد أبدى لي دهشته ذات مرة من أني لا أدخل الكنيسة أبدًا إلَّا لشهود حفل زفاف أو جناز!

* * *

وارتدينا السراويل الطويلة في وقت واحد، وكان ذلك يحدث في وقت متأخر عما أنتم عليه الآن. وشربنا سيجارتنا الأولى معًا، هو في تكتم شديد وفي خفية عن والدته التي كانت تنهاه عن ذلك، وأنا علانية لأن أبي لم يُبْدِ اعتراضًا!

وشعرنا بقدر متعادل من الاضطراب وخيبة الأمل إن لم أقل بكثير من القرف والاشمئزاز، ولكننا لم نتحدث أبدًا في ذلك الموضوع.. وحينما انطلق إلى هناك مرة ثانية -فقد ذهبت بدوري مرة أخرى وسمعتهم يذكرونه- انطلق بمفرده دون أن يخبرني أو يطلب مني مرافقته.

ولقد كان لك في العام الماضي صديق ذكرني مرآه «نيكولاس»،

هو ذلك الفتى الذي دعوته باسم «فرديناند»، والذي قلت لي إن أباه قصاب خنازير، الأمر الذي سبب صدمة عنيفة لوالدتك، وقد حضر مرتين أو ثلاث مرات لزيارتك، ولا أشك في أنكما خرجتما معًا في تلك المرات، ولكنك لم تعد تذكر لنا عنه شيئًا كما اعتدت دائمًا مع أصدقائك الكثيرين.

هل كان أبي محقًّا في شعوره بالقلق؟ وهل كان «نيكولاس» حقًّا طرازًا رديئًا من الصبيان ما كان ينبغي لي أن أصادقه أو أماشيه.

كان أبي يعرف عن أصدقائي وما أفعله أكثر مما أعرفه أنا عنك؟ ولا أعني أني ألومك على تكتمك أسرارك.

وكنت بطبيعة الحال أخشاه وأهابه أكثر مما تهابني أنت الآن، ولكني كنت أفهم وأقدر اضطراره لأن يتخذ معي مواقف معينة في بعض الأوقات، حينما أتجاوز حدودي، أو يبدر مني ما لا يليق من التصرفات، دون أن أشعر بأي ضيق أو غضب، بل كنت أتألم من أجله، لثقتي بأنه إنما يفعل أمرًا كريهًا إلى نفسه، ولا يقصد إلَّا الخير لي، تمامًا مثلما يحدث معي الآن حيالك.

كذلك كنت أشعر بالأسف والحزن عليه؛ لأنه حتى في الفترات الوجيزة التي كان يختلسها من عمله المضني ليرتاح فيها لا يجد أمامه إلَّا نظرات أمي المشدودة إلى الأمام! وكنت أحسده على سعة صدره وصبره العجيب.

كان يذهب مرة كل شهر إلى «باريس» لأعمال ينجزها في وزارة

الداخلية، وبعض الوزارات الأخرى، وكثيرًا ما كان يمكث بها يومين أو ثلاثة.

هل كانت له صديقة معينة يتردد عليها في تلك المواعيد.. أما تراه كان يترك ذلك للمصادقات وحدها؟

ومن المفهوم طبعًا أني لم أسأله أبدًا... رغم أني متأكد الآن من أني لو سألته لأجابني بكل صراحة وصدق كما تراني أفعل بنفسي ذلك.. لو كنت مكانه.

وكانت لنا بعض لحظات المودة والألفة، نتبادل فيها بعض الأحاديث القصيرة مساء كل يوم تقريبًا، مثلما أفعل أنا وأنت أحيانًا، ما عدا أنني أنا الذي كنت أزوره دوامًا وأسعى إليه في غرفته.

وكان الطابق المخصص لإقامتنا في المحافظة متسع الأرجاء عديد الغرف والأبهاء، تشغل أختي منه -سواء قبل زواجها أو بعده- طرفًا بعيدًا يطل على الفناء الثاني الخلفي، أما غرفتي فكانت على الطابق الأسفل. ولم يكن لدينا غرفة عائلية صغيرة للطعام، فكنا نستعمل المائدة الكبرى المخصصة للمآدب الرسمية والمجاورة للصالون الكبير حيث تقام حفلات الاستقبال والرقص.

وحين كنا نخلو لأنفسنا ونتناول العشاء -الأمر الذي كان يحدث مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع- كان عددنا خمسة حول المائدة المعدة لجلوس عشرين.. يفصل بين كل فرد وآخر فراغ كبير؛ أبي وأمي، وشقيقتي وزوجها، وأنا. وشد ما كنت أشفق على الساقي (فالنتين) الذي كان يتعب لطول المسافة في توصيل الأطباق إلينا.

وما زلت أذكر تلك القاعة التي كنا نجلس فيها للطعام، وتلك «النجفة» الضخمة ذات الخمسين مصباحًا كهربيًّا أو أكثر معلقة فوق رؤوسنا، والتي لم تكن تضاء قط إلَّا في المآدب الرسمية، ونكتفي بزوج من الشمعدانات على طرفي المائدة الكبيرة، يكاد يكفي لتعرف ما في الصحون أمام عينيك، على حين كانت تسبح الجدران وباقي الغرفة في الظلام، وعلى الحائط المواجه لمكاني مباشرة فوق رأس شقيقتي سجادة باهتة اللون تستطيع بصعوبة بالغة تمييز رسوم بعض الغزلان، ترعى العشب حول قناة جارية.

وكانت ثمة لوحة كبيرة معلقة على الجدار تمثل فتاة ترعي مجموعة من الإوز، وما زلت أرى في خيالي تلك الإوزة الضخمة البيضاء التي انفردت عن شقيقاتها في مؤخرة الصورة، وبدت بارزة وسط الإطار اللامع العريض كأنها إوزة ناضجة تحتل طبقًا كبيرًا تغري بأكلها!

ونحن -في شارع «ماكماهون»- لدينا مَن يقف على رؤوسنا في أثناء الطعام يلبي طلباتنا، ولكن ما يكاد الخادم يقدم الصنف حتى ينسحب ويتركنا في هدوء، حتى نستطيع أن نتحدث كما نشاء.

بيد أني -في طفولتي وصباي- لم أجرب هذه الحرية قط، فكنت أشعر دائمًا بذلك الساقي الأسمر ذي الثياب البيضاء والسروال الأسود والكتفين العريضتين والوجه الصارم كأنه تمثال من البرونز.. كنت أشعر به دائمًا خلفي يتحرك بخفة القط حاملًا بيد يديه المغطاتين بالقفاز الأبيض نوعًا من الطعام.

وربما استغرب بعض أصدقائك ممن كنا ندعوهم للطعام، حينما يشاهدونني أعد المقعد لوالدتك لتجلس عليه أمام المائدة قبل أن أتخذ مقعدي بجوارها فتلك عادة تعلمتها عن أبي الذي كانت من أحد واجباتها ألَّا تفوته ولا يغفل عنها أبدًا.

وهناك كانت تجلس أمي دون أن تخفض عينيها لتعبر عن شكرها ودون أن تبتسم! وكأنها إحدى ملكات العصور الوسطى تتقبل في عظمة واستعلاء ضيافة أحد رعاياها وعبيدها المخلصين! ثم تأكل في صمت، لا تشترك أبدًا في أي حديث أو مناقشة!

وفي أغلب الأوقات كان الحديث مقصورًا على «فاشيه» وشقيقتي، وكثيرًا ما كان أبي –حين يتضايق من السكون القاتل، أو لا يعجبه ما يدور بين ابنته وزوجها– ينظر إليَّ قائلًا:

– وأنت يا ولدي، ماذا فعلت اليوم؟

وذلك حتى يغير موضوع الحديث الذي اختاره «فاشيه»، الذي كنت أعتقد دائمًا أنه يتعمد فيه إثارة أبي، فسواء كان يتحدث في الفنون والآداب أو في الفلسفة أو الموسيقى أو في القانون أو علم الإدارة أو حتى في الموضة في الثياب أو الأثاث –كانت آراؤه دائمًا معارضة لآراء جدك، وكأنه يجد لذة في تسفيهه والوقوف في وجهه!

وأكاد أقسم أن علاقته بشقيقتي التي انتهت بزواجه منها لم تبدأ داخل مبنى المحافظة، فلم يكن لنا أي احتكاك بالموظفين، ما عدا قلة يُعدُّون على الأصابع، مثل السيد تورينر الرجل العاقل الرزين مدير المكتب الخاص، و«هيكتور لوازو» السكرتير الأول، وأحيانًا مع

سكرتيرة أبي الخاصة «المدموازيل بونوم».

ولا بد أنهما تلاقيا في المدينة، وقد دفعه طموحه إلى أن يتخطى الكثيرين ممن هم أكثر منه سنًّا وخبرة وأرفع منه منصبًا، ولكنه كان يعلم ويؤمن بأنه يستحق ذلك وأكثر منه أيضًا، فاستأنف قفزاته إلى الأمام.

فهل أدرك أبي فيه ذلك الطموح وشجعه عليه، أو تراه حينما وافق على زواجه ومصاهرته، كان مدفوعًا بمبدئه الذي لا يحيد عنه في عدم التدخل في حياة الآخرين حتى لو كانوا أبناءه؟

ولو حدث مثل هذا الزواج في محيط أي أسرة أخرى، ما حال ضيق يد الزوج عن أن يخرج هو وزوجته ليقيما بعيدين عن أسرتها، ولكن «فاشيه» الماكر الذي يخطط للمستقبل، قد وجد مصلحة كبيرة في أن يظل مرتبطًا بأسرة المحافظ في نظر الخاصة والعامة، حتى يظل دائمًا في الصورة، وحتى تُفتح أمامه جميع أبواب المجتمع إكرامًا لخاطر حاكم الإقليم!

ولو ظلت «آرليت» -حتى بعد زواجها- منضمة إلينا قلبًا وقالبًا - كما كانت وهي بعد فتاة، ما كانت هناك مشكلة في محيط الأسرة، ولكن الذي استرعى نظري -وكنت لم أتجاوز بعد سنك الآن -هو أنها كانت- وبين كل يوم وآخر -تزداد عنا بعدًا لتنضم جسمًا وروحًا إلى زوجها!

وكنا حتى لحظة زواجها ننظر إليها كأي فرد من أسرة «لافرنسوا» بل لقد كانت أكثر اتصالًا وارتباطًا بأبي مني صداقة ومودة، وكثيرًا ما كنت أراهما على المائدة يتبادلان النظرات والابتسامات، الأمر الذي

يدل على المشاركة في الفكر، وأنهما كانا يتحدثان طويلًا في ألفة وتفاهم.

ولكن ما كاد «فاشيه» يدخل في حياتنا -خطيبًا لها-، حتى بدأت «آرليت» تتغير تمامًا في طباعها وطريقة حديثها، حتى الطريقة التي كانت تصفف بها شعرها!

ولعل أكثر ما أثار دهشتي أن نظريتي في الحب قد انقلبت رأسًا على عقب، وأنا أرى الطريقة التي بدأ «فاشيه» يعامل بها أختي! لم يكن يتملقها أو يسعى لإرضائها قط، بل كانت هي التي بدأت -بعد أسابيع قليلة- تعمل على تلبية طلباته وإرضائه في مذلة وخضوع، تخشى عليه من النسيم حتى لا يجرح خديه! لا تشكو أبدًا مهما أساء «الإتيكيت» وقواعد الأصول في معاملتها.. كما يحدث كثيرًا مع محدثي النعمة.

وبعد أن نشر مجموعة من القصائد في عدة مجلات مختلفة، بدأ يكتب قصة طويلة، وكانت «آرليت» تسهر طوال الليل تكتب له على الآلة الكاتبة، وهو يملي عليها:

«على المرأة أن تكون مرآة لزوجها، تنعكس عليها طباعه وشخصيته».

وكان أبي يصغي في صمت، وربما قطب حاجبيه عبوسًا في بعض الأوقات، أو يبتسم متعجبًا وهو يرى ابنته سليلة أسرة «لافرنسوا» تبذل طاقتها في خدمة زوجها بكل الوسائل، على حين أنه يتقبل كل ذلك كأنه حق من حقوقه!

كان موضع حسد من زملائه موظفي المحافظة؛ لأنه استطاع أن يفوز بابنته، فشاء أن يتمم مركب النقص في نفسه، فتمادى في إظهار عدم اكتراثه بذلك النسب، وكأنما نحن الذين سعينا إليه، وكأنما هو الذي أولانا شرفًا كبيرًا حيثما تواضع فصاهرنا!

ومن أمثلة ذلك أنه كان آخر مَن يجلس إلى مائدة الطعام، حتى نضطر جميعًا إلى انتظاره، وكان يحضر مرتديًا روبه المنزلي ودون ربطة عنق، منتعلًا في قدميه الخف الذي يستعمله في غرفة النوم.

وينظر إلى زوجته، وهو ينفخ من أنفه في استياء:

- هلا تركتموني نصف ساعة أخرى، حتى انتهى من إتمام الفصل.

وهو يقصد بذلك أن يظهر اشمئزازه من تمسكنا بتقاليد المائدة، ويعبر عن نفوره من المواعيد التي حددناها لتناول الوجبات!

وإذا كانت السنوات الطويلة لا بد أن تترك أثرًا على كل إنسان يظهر عليه بوضوح كلما تقدم به العمر، فإن «فاشيه» -من دون الناس جميعًا- لم يطرأ عليه أي تغيير، لم يزد وزنه درهمًا، ولا حجمه قيراطًا، عما كان في صدر شبابه، سوى أن الدهاء والمكر وخبث الطوية التي كان يكتنزها في أعماقه بدت أكثر ظهورًا في عينيه وحول فمه!

كان يذكرني بذئب عجوز، في حركاته ترقب وحذر، ويتأهب دائمًا للانقضاض والفتك بأي فريسة يسوقها سوء الحظ بين أنيابه!

حتى قصصه التي لا أحبها وإن كنت أعترف بأنها قوية ومحبوكة الأطراف -تؤكد روحه الهجومية ورغبته المدفونة في التشفي

والانتقام، أما مقالاته -التي تتسم بالتهكم اللاذع والنقد المسموم الهدام والتي تفرد لها بعض الصحف أعمدة خاصة- فهي التي أكسبته الشهرة واحترام الناس ورهبتهم.

وبعد العشاء يثب واقفًا، يكاد يقلب مقعده في وقاحة قبل أن يقدم الساقي أطباق الحلوى وينتهى العشاء، ويعود لاستئناف عمله، ثم تتبعه أختي بعد فترة قصيرة، وتنطلق أمي إلى فراشها مبكرة، أما أبي فيغادر الطابق المخصص لسكنانا، ويذهب إلى مكتبه الرسمي؛ ليزاول عمله فترة المساء.

وقد يعتقد الناس جميعًا كما كنت أظن وقت ذاك أنه يزاول أعمال وظيفته، يقلب بين الأضابير والملفات التي لم يتسع وقته لبحثها خلال النهار بسبب دخول وخروج مديري الإدارات والأقسام ورنين أجراس التليفونات.

بيد أني اكتشفت أنه كان في تلك الساعات المتأخرة من الليل، وفي ذلك المكتب القابع في نهاية الممر الطويل بين مكاتب الموظفين التي خلت منهم، كان يخلو لنفسه ويغلق عليه باب مكتبه يستمتع بلحظات ممتعة يشبع بها هواية خاصة بعيدة عن روتين العمل اليومي.

وكانت القراءة أفضل هواياته وأحبها لنفسه، ينكب على كتابه وقلمه الأحمر في يده، يضع خطوطًا تحت عبارات بأكملها، ويضيف على هامش الصحيفة تعليقاته الطريفة وانطباعاته النفسية بخط جميل دقيق.

وكان ذلك من بين الأسباب التي جعلتني أتمسك بنفائس الكتب

التي خلفها أبي، حتى لا تقع بين براثن ذلك الذئب «فاشيه» مهما كانت التضحيات!

وكنت حالما أنتهي من أداء واجباتي، أنطلق إلى أبي لألقي عليه تحية المساء، وبالرغم من أنه لم يكن بيننا في معظم الأحايين الكثير مما يقال، فقد كانت تلك اللحظات من أسعد أوقاتي، أفتح باب مكتبه الخارجي المبطن باللباد والمطاط وشرائح النحاس اللامع، ثم أطرق الباب الداخلي في رفق، وأدفعه دون أن أنتظر جوابًا، وهناك يجلس أبي بجوار المدفأة المتأججة نيرانها شتاء، أو بجانب النافذة الكبيرة المفتوحة على الفناء الخلفي صيفًا يدخن سيجارة في تلك الساعة من الليل، وإلى الآن لا تزال رائحة التبغ تنبعث في أنفي، ولا تزال سحب الدخان الزرقاء تبدو أمام عيني وهي تدور في حلقات حول ضوء المصباح ذي الغطاء المظلل والقابع خلف مقعده.

ويستدير نحوي قليلًا وهو يغمغم:

- هل هذا أنت يا ولدي؟

وأقف بجوار المدفأة شتاء أو بجانب النافذة صيفًا دون أن آتي بحركة أو أنطق حرفًا، حتى يتم قراءة القطعة أو الفقرة التي كان مشغولًا بها.

وفي النهاية يرفع رأسه ويرمقني قائلًا:

- حسنًا؟

والآن وبعد أن صرتُ أبًا، أعلم يقينًا أنه لم يكن يقل عني اضطرابًا وحيرة!

- هل استذكرت جيدًا؟

- نوعًا ما.

- أسعيدٌ أنت؟

ولم يكن حديثنا -في أكثر الأوقات- يزيد كثيرًا عن ذلك، فأنحني فوقه وكتابه منشور على ركبتيه، وأطبع قبلة خفيفة على جبينه، ثم أنطلق إلى فراشي، وربما تبادلنا شيئًا عن مجريات الأمور في ذلك اليوم.

لم يكن من طبعه استدراجي أو محاولة إكراهي على الإفضاء بما اعتقده في نفسي سرًّا.

وفي ليلة ما، حينما ذهبت ألقي عليه تحية المساء، أراني فقرة في كتاب كان منهمكًا في قراءته:

«قلما يصل الأبناء إلى حقيقة حب الآباء لهم ورغبتهم الخالصة في تقديم النصيحة الصادقة، إلَّا بعد أن يتجاوزوا المرحلة التي يحتاجون فيها فعلًا إلى النصيحة والإرشاد».

ولم أصل قط إلى معرفة اسم ذلك الكتاب أو حتى اسم مؤلفه، كذلك لم أسأل أبي عنه، حتى لا أقلل من قيمة الرسالة الصامتة التي كان يوحي بها إليَّ، والتي يخيل إليَّ أنه ربما ترك كتابه مفتوحًا عندها حتى أصل وأقرأها بنفسي.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنني لم أدرك قط أي دور لعبه أبي في حياتي، ولسوف يستمر أثره باقيًا خالدًا في نفسي، حتى بعد مماته، إلَّا بعد فوات الأوان.

كان يحاول دائمًا أن يعلمني كيف نتخاطب بلغة الأعين تمامًا، كما كان يفعل هو حين يرمقني بنظراته الفاحصة، يستشف ما يدور برأسي، ويقرأ ما يختلج بين جوانح نفسي دون حاجة إلى كلام أو حديث، ومن ذلك أني فهمت حينما رأيت الحزن في نظراته ذات يوم أنه قد حدس بأني أميل إلى الجانب الذي يقف فيه خصمه «بوريل»، وأن في نفسي ثورة عارمة ضد أولئك المحكومين الذين يقبلون الخنوع ويدينون بالطاعة العمياء دون مناقشة من أمثال «نيكولاس» ووالدته؟

وكثيرًا ما سألني ضيوفنا كما اعتاد أصدقاؤنا أن يسألوك:

– ما الذي اعتزمت أن تكونه عندما تكبر؟ أمحافظ مثل أبيك؟

وكنت في طفولتي أجيب نفيًا، وكنت أقولها بحدة وخشونة، طالما أثارت ضحك الجميع.

– طبيب؟ محام؟ مكتشف؟

وكنت أعبس غاضبًا، وفي نفسي إحساس غامض من الخجل؛ لأني عجزت عن الجواب. وكان أبي يسرع لنجدتي، فيغير الحديث في موضوع آخر.

ولقد كان لمعظم أصدقائي فكرة أو هدف يضعونه نصب أعينهم منذ طفولتهم، يسعون جاهدين لتحقيقه دون أن يحيدوا عنه قيد أنملة، وفي النهاية يسعدون بتحقيق أحلامهم.

أما أنا فقد كان مجرد التفكير في ذلك السؤال يفزعني، وأشعر بتقصيري لجهلي بالمكان الذي سوف أشغله، كما لو كان ذلك هروبًا

مني نحو تأدية واجباتي في المجتمع، وذلك على حب تفكيري كان لا يعادله إلَّا شعور الجندي الجبان الذي يفر من ميدان الحرب متعللًا بأوهى الأسباب.

وحين كنت أخلو لنفسي، وأبدأ في تحليل رغباتي وميولي، حتى أصل إلى معرفة نوع العمل الذي يروقني، وأعتقد أني سأفيد وطني به، في صدق وعزيمة أجد نفسي عاجزًا تمامًا عن العثور على ضالتي، حتى بلغ مني اليأس حدًّا آمنت فيه بأني شخص فاشل لن يوفق في أي مجال، وربما انتهى بي الأمر فأصبح كمًّا مهملًا معزولًا عن تأدية أي دور هام في المجتمع.

كنت أشعر بغضاضة في أن أصير عبدًا لأي وظيفة تربطني في مكان واحد، كذلك لم أكن قوي البنية مشدود العضلات ميالًا إلى التفكير والابتكار بحيث أختار العمل الآلي أو اليدوي، ولم أكن أهوى الرياضيات حتى أكون مهندسًا، ولا علم الحياة والحيوان حتى أغدو طبيبًا، وهكذا كانت تمر أمامي شتى الصور، فأنفر منها جميعًا.

أما صديقي «نيكولاس»، فكان يصر على أن يصير طبيبًا مهما طال به الزمن!

وظلت تلك حالتي، حتى بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وحينما وجَّه لي أحد النواب ذلك السؤال التقليدي مرة أخرى، وجدت نفسي أجيبه فورًا ودون سابقة تفكير:

- أظنني سأدرس القانون.

وفوجئ أبي بذلك، وكان حاضرًا، فابتسم مسرورًا.

هل أسعده أن أقرر ذلك أخيرًا، وأسلك الطريق الذي طرقه قبلي؟

ذلك ما اعتقدته، ومن ثم لم أغير إجابتي قط.

- سوف أدرس القانون.

وكما أخبرتك في مرة سابقة، لم يكن ذلك لحب دفين مفقود، أو التعلق بالقضايا والغوص في مشاكل الناس ومتاعبهم، بل إني كنت أرتعد هلعًا لمجرد تصوري بأني سأقف في حرم العدالة المقدس أواجه القضاة المحترمين والخصوم والمحامين وأتلاعب بالألفاظ الرنانة، وأفسر مواد القانون بالطريقة التي تنقذ رأس موكلي من حبل المشنقة نظير أجر معلوم.

ولكني وجدت في تلك الإجابة ملاذًا هدأ به بالي، وارتاحت إليه نفسي، فلم أعد أشغل قلبي وتفكيري في البحث عن مستقبل لي بعد ذلك، وإذا كان في ذلك ما يبعث السرور في نفس أبي، فلا بأس أن أحذو حذوه، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ونجحت في البكالوريا، كما نجح أيضًا «نيكولاس» في العام نفسه «١٩٢٦» بعد زواج شقيقتي ببضعة شهور.

وإن الدهشة لتستبد بي حينما أرى تلك الأعوام الطويلة بما حفلت من أحداث ومشاعر وأحاسيس، وقد اختصرتها في صفحات قليلة تقرؤها في دقائق، ومع ذلك فإني أبذل جهدي لأحدثك بكل شيء وأشعر في بعض الأحيان بأني أضيف أشياء كانت مجهولة لي

في صباي وطفولتي، ولم تتكشف لي إلَّا الآن.

وفي أكتوبر دخلت كلية الحقوق في «بواتييه»، حيث استأجر لي والدي غرفة مفروشة في أحد البيوت الخاصة خلف مجلس المدينة، كان بيتًا صغيرًا جميلًا يملكه السيد «بلانكبان» وزوجته، وأعاد لنفسي ذكريات بيوت مدينة «فتيلي» ورائحة مطبخ والدة «نيكولاس».

وأكاد أرى أبي الآن أنيقًا رشيقًا نبيل المنظر كما كان دائمًا، يقف على باب غرفتي بعد أن تركتنا صاحبة البيت نخلو لأنفسنا.

كانت جدران الغرفة مغطاة بورق أصفر اللون، مزين بوردة صغيرة حمراء، وبها سرير خشبي متين الصنع عليه حشية سميكة وملاءة بيضاء، وأغطية صوفية من نوع ممتاز، وفي المدفأة نار حمراء تتأجج، ومن خلال النافذة تبدو أسطح البيوت المجاورة المغطاة بالقرميد الأحمر.

وفتح أبي النافذة، ونظر يمينًا ويسارًا، وكان أحد باعة الفاكهة قد توقف لتوه بعربته أمام باب الدار، وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحًا، والسماء ملبدة بالسبح تنذر بأمطار وشيكة الهطول.

- حسنًا يا ولدي؟

وأظن أني ابتسمت ابتسامة باهتة.

وفي حركة آلية، مضى يفتح أدراج البوفيه المجاور لصوان ثيابي، ثم فتح ضلفتي الصوان حيث كانت الشماعات تنتظر ثيابي، ثم راح يتأمل قطعة السجاد السميكة بجوار الفراش.

- ينبغي أن أعود إلى «لاروشيل».

- أجل.

وكنا نقف أحدنا في مواجهة الآخر، كلانا يشعر بالاضطراب.

وكان أبي هو الذي نفض عن نفسه الحيرة والاضطراب، فقال:

- حسنًا، هذه هي الحياة!

كلمات قليلة تحمل كثيرًا من المعاني والمشاعر.

وقبل أن يدلف من الباب الخارجي، استدار نحوي وهو يقول:

- هل سنراك في أيام السبت؟

- أعتقد ذلك، بل من المؤكد إذا لم...

- إلى اللقاء يا ولدي.

وهكذا تركني بمفردي أواجه المستقبل معتمدًا على نفسي لأول مرة.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

كنت وقت ذاك في الثامنة عشرة من عمري، قوي البنيان، رشيق القوام، نشيط الحركة، فخورًا بدرَّاجتي البخارية الجديدة التي أهداها لي أبي بمناسبة نجاحي في البكالوريا، ولم أعد طفلًا يلبس البنطلون القصير، أو حدثًا بالصف الثانوي، بل في المرحلة الجامعية أنتظم في سلك الرجال، وأتنفس بملء رئتي في غرفة خاصة بي على أبواب حياة جديدة، أخطو خطواتي الأولى بغير قليل من الرهبة والخوف.

وذهبت إلى «لاروشيل» يوم السبت من ذلك الأسبوع، ثم كل سبت من الأسابيع التالية، ما عدا الأسبوع الثالث، حيث كنت أعود إلى غرفتي التي خُيِّلَ إليَّ أنها تغيرت كثيرًا، وأتردد على قاعة الطعام لظلالها وأضوائها الخافتة، حيث تواجهني نظرات أمي المشدودة للأمام ،وصوت «فاشيه» الكريه لأذني ووجهه الذئبي الممقوت.

ولم أتلق من «نيكولاس» سوى بطاقتين يطمئني فيهما على أن صحته جيدة، وعلى أن أموره تسير على خير ما يرام في «بوردو» وخاصة أن أساتذته الجدد قوم مهذبون، وأضاف أن لديه كلامًا كثيرًا يملأ عربات سكة حديدية ويدخره لي حتى نتقابل في إجازة عيد الميلاد.

ويدهشني أن أتبين فجأة كيف تخونني الذاكرة فأغفل بعض التفصيلات الهامة حينما أصل إليها، أو بعبارة أخرى أجد نفسي عاجزًا عن ترتيب الوقائع على حسب توقيت حدوثها، وأرى الصور تتابع أمام ناظري في سرعة خاطفة، الأمر الذي يتعسر عليَّ ربطها بما كانت عليه من ترتيب ونظام.

فمثلًا إحدى تلك الصور أرى فيها نفسي -يوم الأحد الأول من سفري- واقفًا بميدان الجيش بمدينة «لاروشيل»، واقفًا في الردهة الخارجية أدخن إحدى سجائري في أثناء الاستراحة بسينما «أوليمبيا»، ومر بي أحد رفاقي السابقين يتأبط ذراع صديقة حسناء، وما كاد يلمحني حتى أشار لي بعينه باسمًا، وكان الطقس في تلك الليلة باردًا والسماء ملبدة بالغيوم، فعدت مباشرة إلى مقري بدار المحافظة، وكانت شقيقتي وزوجها يستقبلان بعض الأصدقاء في غرفة الجلوس، ويتحدثون جميعًا بصوت مرتفع، فتسللت مباشرة إلى غرفتي ألتمس بين جدرانها الباردة دفئًا.

ومنظر آخر في «بواتييه»: في الأحد الثالث الذي لم أسافر فيه إلى «لاروشيل»، حيث ظلت السماء تمطر مدرارًا منذ الليلة السابقة، وفي الصباح كانت الطرقات كلها مغطاة بالجليد. فانطلقت إلى المشرب، وانتحيت مائدة منعزلة، أحتسي كأسًا من الجعة، وأراقب بعض طلبة الصف الثالث وهم يلعبون البلياردو.

صور كثيرة أنشرها أمامي كأوراق اللعب، ومن بينها أيضًا ما حدث في ليلة عيد الميلاد، حينما كنت أجلس مع صديقي «نيكولاس» في

أحد مقاهي «لاروشيل» نتحدث، وإذا أمسك «نيكولاس» بطرف أي حديث، فلك أن تراهن بما شئت أنه لن يكف أبدًا عن الخوض فيه، وهكذا ظل يتحدث في موضوع واحد حتى الواحدة صباحًا، حينما أوصلني في الطريق إلى باب المحافظة.

وقال: «لا بد من أن نجد مَن يشاركنا في عطلتنا، ولسوف أعثر على ضالتنا سريعًا وحتمًا».

وكانت ثمة شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم تحتل غرفة الجلوس لم تكن لنا، إنها شجرة رسمية أُقيمت من أجل أطفال وأبناء موظفي المحافظة والموظفين أنفسهم، ولقد احتفلوا جميعًا بأخذ هداياهم من بين فروعها عصر ذلك اليوم، وكانت أختي قد انطلقت مع «فاشيه» لمشاهدة بعض الاحتفالات الليلية وأمي نائمة، ووجدت أبي يقرأ في هدوء بغرفته وفي ركنه المحبب إلى نفسه، وكان دخان التبغ يملأ الغرفة أكثر من ذي قبل.

– ميلاد سعيد يا أبتِ.

– ميلاد سعيد يا بنيّ.

– هل أمضيت وقتًا طيبًا؟

– تحدثنا طول السهرة، أنا و«نيكولاس» في مقهي «دي لابيه».

وكانت معرفته «بنيكولاس» سطحية يراه حين يحضر لزيارتي، لكنه لم يستوقفه ولم يتحدث معه.

– هل ماما على ما يرام؟

- نعم، لقد بكرت في الذهاب إلى فراشها كعادتها، وسأحذو حذوها بعد قليل..

ولا ريب في أنه كان يريد الانتهاء من الباب الذي يقرأ فيه، أو ربما الكتاب كله.

- طابت ليلتك.

- طابت ليلتك.

* * *

واستيقظت في الصباح التالي محمومًا، آلام فظيعة في كل جسمي، طعم مرير في لساني، وحين حاولت النهوض اصطكت ركبتاي فلم تقو ساقاي على حملي، ولم تمض سويعات حتى ظهر البرد على وجهي فاحمر أنفي، وأصابني الصداع، حتى كاد ينفجر له رأسي، ويبدو أنه كان لديَّ استعداد للإصابة بالإنفلونزا، وشجعها السهر الطويل.

وأمضيت ثلاثة أيام لا أخلع عني منامتي، أجر جسمي المُنْهَك تنقلًا في صعوبة بالغة من الفراش إلى المقعد الكبير ذي المسندين، أحاول القراءة أحيانًا، ثم أتطلع من النافذة أحيانًا أخرى، وكرهت السجائر؛ فقد كان للدخان مذاق كريه في فمي.

كان عيد الميلاد في ذلك العام شديد القسوة قارص البرودة، حرارته هبطت عدة درجات تحت الصفر فتجمد كل شيء، حتى الحياة نفسها تجمدت عن الحركة، وفي الساعات الأولى من الصباح كنت

أشاهد المؤمنين الذين هرعوا لحضور قداس الصباح في الكنائس، والمخمورين الذين لفظتهم المشارب والحانات بعد سهر طويل، ضحكوا وعبثوا ورقصوا فيه ما شاء لهم المرح، وكل مَن اضطرته ظروفه للوجود خارج الأبواب في تلك الساعة كانوا يرتعدون، وقد غطى الجليد رؤوسهم حتى أقدامهم، وكأنه العهن المنفوش، بل خُيِّل إليَّ أن السماء والأرض حتى الحجارة التي شيدت منها المنازل وأرصفة الطرق وأعمدة المصابيح كلها كانت تلمع ببياض ناصع كأنها نصال سيوف أو خناجر حادة ماضية.

وأقبلت طباختنا «بياتريس» تحمل إليَّ إفطاري، ولكني نحيته جانبًا، ولم ألمسه، وبعد ذلك جاء أبي بمنامته وروبه المنزلي.

- أمريض أنت؟

- إنفلونزا بسيطة على ما أعتقد.

ومكث بجواري حوالي عشر دقائق، ثم انطلق إلى مكتبه، ربما ليسأنف القراءة.

ولم تستيقظ شقيقتي وزوجها إلَّا وقد انتصف النهار، فحضرا بعد الغداء لزيارتي، دخلت «آرليت» في تردد تسألني عن صحتي وهي تختلس النظرات نحو زوجها الذي رفض الدخول إلى غرفتي وظل واقفًا بجوار الباب المفتوح؛ لأنه يخشى الإصابة بالعدوى، ثم عجلا بالانصراف معتذرين بمشاغلهما.

ولم يتصل بي «نيكولاس» تليفونيًّا في ذلك اليوم، ولا في اليوم

التالي، حقيقة لم يكن بيننا موعد محدد لأي لقاء، ولكننا كنا متفقين على قضاء الجزء الأكبر من إجازتنا معًا، الأمر الذي ضايقني لعدم سؤاله عني.

لماذا شعرت بالضياع والوحدة؟ كان كل ما حوالي صامتًا ساكنًا سكون القبور: دار المحافظة ذات الطوابق الكثيرة والأجنحة المتعددة وعشرات المكاتب والغرف التي لا تخلو أبدًا من الحركة والعمل والموظفين والسعاة وأصحاب المصالح والأعمال- كانت كلها مهجورة خاوية على عروشها في عطلة عيد الميلاد.

حتى حركة المرور في الميدان الكبير كأنما قد أُصيبت بالشلل؛ عدد ضئيل من السيارات، أقل كثيرًا مما اعتدنا رؤيته، ونفر قليل من المارة يهرولون مسرعين وقد دسوا أيديهم في جيوبهم ورفعوا ياقات معاطفهم، على حين كنت ألمح حلقات كثيفة من الدخان تنبعث من أنوفهم وأفواههم، تطوف حول رؤوسهم.

وأذكر أني رأيت أسرة تمضي في الطريق -قرب الظهيرة-، لعلها كانت في سبيلها لزيارة جد أو جدة لمناسبة العيد -مؤلفة من خمسة أفراد- من بينها ثلاثة أطفال. ارتدوا جميعًا ثياب العيد الجديدة الزاهية. وأحد الأطفال في الرابعة أو الخامسة حول رقبته وشاح ثقيل أحمر، وفوق رأسه طاقية صوفية حمراء، وكانت أمه تجذبه وتجره في عنف وقوة حتى يسير، وهو في عناده العجيب يبدو مشاكسًا لا يريد.

ويبدو أن الوالدين كانا في عجلة من أمرهما، أعصابهما قلقة متوترة بعد سهر طويل وصباح حافل بالصخب والضجيج، مع ما اقتضاه ارتداء

الجميع لثيابهم من عناء وجهد كبير، فكنت أرى أفواههم تفتح ثم تغلق دون أن أسمع حديثهم من خلال زجاج نافذتي، وأخيرًا دفعت الأم طفلها الصغير في ظهره، فسقط متزحلقًا بثيابه الجديدة فوق الأرض المبتلة.

ولا بد أنها كانت تأمره بأن يستوي على قدميه، وتهدده بحرمانه من لعبه وهداياه أو بأي عقوبة أخرى، ولكن الشيطان جعل أذنًا من طين، وأخرى من عجين! وكأنه وجد متعة عميقة في أن يثير أعصاب والدته إلى النهاية، فلما نفد صبرها وضاق صدرها، تحولت نحو زوجها تنفث ثورتها وتصب عليه غضبها، ولا شك في أنها اتهمته بالوقوف ساكنًا مكتوف اليدين كأنما الأمر لا يعنيه، ووصمته بالضعف والتخاذل وتدليله للأولاد وإفساد أخلاقهم، أو شيء من هذا القبيل.

وكان يرتدي معطفًا قديمًا أسود اللون، ووقف برهة مترددًا ينصت لصياحها في ضيق، وأخيرًا جذب وليده من يده جذبة قوية حتى أقامه على ساقيه، ثم لطمه على وجهه في عنف، لا أشك أبدًا في أنها آلمت الأب أكثر مما تألم لها الطفل.

ولقد هزتني تلك اللطمة، فوثبت من مكاني كأنما قد لدغني عقرب، وفي تلك اللحظة شعرت برباط خفي يجذب بين روحينا، أنا وذلك الأب المسكين، وشد ما كانت دهشتي حينما رفع نظره إلى أعلى وشاهدني خلف النافذة، ولا أستطيع أن أصف لك معاني الأسف والخجل التي قرأتها في وجهه تلك اللحظة وهو يطاطئ رأسه، كأنه يعتذر للدنيا بأسرها عما فعل.

* * *

لم يتصل بي «نيكولاس» في اليوم الثالث.

وفي اليوم الرابع سمعت طرقًا على الباب، فقلت: «ادخل»، وإذا به «نيكولاس» يحمل معه نسيم الحياة والدنيا خارج تلك المقبرة التي أسكنني فيها المرض، وكانت ثيابه مبتلة بالماء عليها بعض آثار الجليد.

– قيل لي: إنك لست على ما يرام، وأرجو ألَّا يكون الأمر خطيرًا؟

ولم يتريث حتى أجيب، كان متحفزًا ممتلئًا بالأنباء التي يدخرها لي بتلك التطورات التي بدأت تحدث له في «بوردو». وقع أسيرًا لها ولم يستطع الفكاك منها.

– لديَّ سيل من الأنباء يا صديقي العجوز، أنباء طيبة، أنباء مثيرة سوف تجعلك تقفز من فراشك في التو والساعة! أتذكر ما كنا نتحدث فيه ليلة عيد الميلاد؟

كانت وجنتاه محمرتين بعد أن لفحته برودة الهواء القارص في الخارج، ولم ينتظر حتى يجلس، كان يتحرق انفعالًا، نافد الصبر غاضبًا حينما رآني أجلس هادئًا في مقعدي الوثير وقد دثرت ساقيَّ بغطائي الصوفي الثقيل، وكأني عجوز كسيح، وبالقرب من يديَّ إبريق من البللور به عصير الليمون.

وكان يصيح في أنفاس لاهثة، كأنما قد قطع الدرج إلى غرفتي عدوًا.

– أبشرْ يا ولدي! لقد واتاني الحظ السعيد بمحظية موفقة و...

- أتسمح لي بالتدخين؟

- بالطبع.

- وأنت ألَّا تدخن؟!

- ليست بي رغبة الآن.

- أعرني سمعك وأنصت جيدًا لما أقول: إنني سأبحث لك عن عروس ممتازة، ولعلي أُوَفَّق.

ولقد كان «نيكولاس» يتميز على الدوام بروحه التي تفيض دعابة ومرحًا.

ولا بد أنه قد صُعق لجمودي وعدم تجاوبي لروحه المتلهفة وحماسته المتدفقة، كنتُ أنصتُ إليه دون اهتمام أو اكتراث، وهو الذي يحاول أن يكسب كلماته رنين النصر، وما كان ذلك حسدًا مني لما نال من نعيم قد حُرِمْتُهُ.

وجلس أخيرًا على أحد المقاعد بوضع عكسي؛ وجهه إلى المسند عاقدًا ذراعيه حول ظهر المقعد. وهو يجذب أنفاس سيجارته من حين لآخر، وعيناه تلمعان غبطة وسرورًا، حتى قضينا سهرة ممتعة في شتى الأحاديث.

* * *

الفصل الثامن

كنت أمر خلال أهم عامين من مراحل حياتي، بل أجمل وأخطر لحظات عمري، ومع ذلك فلم أكن أدرك ذلك، ولم أكن لأعترف به لأي مخلوق في الدنيا، ربما كان ذلك لوجود فارق كبير بين ما كنت آمل في أن يحدث لي، وما وقع لي فعلًا، ومن العسير أن توقظ أي إنسان من حلم جميل لذيذ إلَّا إذا ركلته بقوة!

وحتى الآن.. لا تزال تلك المحاورة الخالدة التي تدور بين كبار السن ومَن يصغرونهم.. تبعث في نفسي الكثير من الحنق والغضب، بل لقد شاهدتك بنفسي حين تسمع ذلك السؤال.. تنكمش في نفسك برغمك في شك وارتياب:

- كم عمرك أيها الفتى؟

ويجيب الشاب مترددًا، لأنه تعلم أن يتأدب مع مَن يكبره.

- ثمانية عشر عامًا يا سيدي.

والإجابة هي هي دائمًا لا تتغير، فالسائل يهتف متكلفًا الدعابة والضحك:

- أحلى أيام العمر، أني لأهب ما أملك حتى أعود لذلك العمر مرة أخرى.

وربما أردف وهو يتنهد من أعماقه:

- على شرط أن يكون لي ما لديَّ الآن من تجارب!

أي تجارب يعنيها ذلك الأحمق؟ هل الإنسان لن يستطيع في حياته الواقعية أن يقف بطموحه عند خط مرسوم، أو يطفئ ظمأه الشديد للوصول -مهما فعل- إلى قمة الإشباع والاكتفاء اللا نهائي؟ كأنكم أيها الشباب لم تصلوا إلى تلك النتيجة بعد!

ويتشوقون عن براءة الطفولة وجمالها، كأن أطفالنا لا تواجههم منذ أن يدرجوا على الأرض، مئات المصاعب والمشاكل المؤلمة التي يحاولون مناقشتها بينهم وبين أنفسهم.

ونحن نتلهف في شرهٍ ونهمٍ على السعادة، ونشعر بأنها في متناول أيدينا، ولكن ما نكاد نمسك بها، حتى تفلت من بين أصابعنا كالزئبق، ونقبض على الهواء بسبب تافه لم يكن في الحسبان قد يكون مجرد ابتسامة ساخرة أو كلمة تفلت منا دون قصد!

* * *

ولقد حدثت بالأمس إحدى تلك المشادات العائلية العنيفة التي قلما تحدث في حضورك، بل لعلها الوحيدة التي شهدتها أنت ولو وقعت في ظروف أخرى ما كلفت نفسي عناء الإشارة إليها في هذا المقام، وخاصة أني الآن أحدثك عن شبابي، ولكنها كانت مهزلة لم تَخْلُ من

فائدة ومغزى عميق في الوقت نفسه، ولذلك فأنا أذكرها؛ لأنها جاءت في الوقت المناسب لترسم صورة ناطقة عن سلوك الآباء نحو الأبناء.

ومن الغريب أنه لم يكن ثمة أي مقدمات، أو كما يقول الإنجليز (عاصفة والسماء صافية)، وكنا نجلس على مائدة الغداء حوالي الواحدة، والشمس تغرقنا بأشعتها الساطعة، والجو بديع، وكل شيء جميل حتى زهرة الجرانيوم المملوكة للآنسة «أوغسطين» كانت كأنها ترقص من السعادة.

ولا أتذكر فيم كنا نتحدث؟ لكنه كان حديثًا مرحًا لا أهمية له حينما التفتت أمك فجأة، وكنت قد نسيت أنه يوم الخميس.

– هل ستأتي معي لتزور عمتك يا «جان بول»؟

ولم أكن أعلم أن عمتك تقيم حفل استقبال في بيتها، كذلك كنت أنصت للحديث بنصف أذن، وسمعتك تسألها:

– متى؟

– حوالي الخامسة، وسيكون هناك بعض الشخصيات ممن يفيدك كثيرًا أن تتعرف بهم.

وكنت أكره هذه العبارة، ومع ذلك فلم تطرف لي عين، ولم أشأ أن أؤثر عليك، ولمحت التردد والحيرة في عينيك، وكنت أفهم ذلك جيدًا.. التردد الذي يصيبك ويصيب كل الشبان في سنك حينما تعترضهم عقبة من العسير تخطيها، ولا بد من تخطيها أيضًا.

– هذا شيء يؤسف له حقًّا يا ماما!

- ولماذا؟

- لأن عليَّ واجبًا منزليًّا، لا بد أن أنهيه عصر اليوم في الرياضة والحساب.

- ولماذا لا تبدؤه فورًا؟

ولا ريب في أن من حق أمك -وقد غدوت رجلًا ملء ثيابك- أن تفخر بك أمام الناس، ولكنها تغفل عن أن أصدقاءك لا يمكن بالضرورة القصوى أن يكونوا أصدقاءك، وأنك لا تشعر بأي حب أو رابطة تربطك بمَن يترددون على صالون «فاشيه» أو عمتك «آرليت»، ولا يروقك ذلك الوسط أو يبعث في نفسك أي صدى من متعة أو اهتمام، تمامًا كما أشعر أنا شخصيًّا.

- سأحاول ذلك يا أماه ما دامت هذه مشيئتكِ حقًّا، ولكني لن أستطيع أن أؤكد لكِ.

وكان من عادتها -إذا ذهبت لإحدى حفلات الكوكتيل التي تقيمها عمتك- أن تعود على العشاء، وكثيرًا ما كانت تتصل بنا تليفونيًّا، وتطلب أن نتناول طعامنا من دونها، فلماذا عادت هذه المرة في وقت مبكر وفي حالة نفسية ثائرة؟

ولقد وجدت صديقك الجديد «زابو» معك في غرفتك، ولم تُبْدِ أي تعليق على ذلك وقتئذ في مواجهته، بيد أنها ما كادت تجلس للعشاء حتى انطلقت تنفث من غضبها..

خاطبتني قائلة:

- «آلين»! أتعرف لماذا لم يستطع «جان بول» مرافقتي عصر اليوم؟ ويبدو أني أُصاب بالصمم أحيانًا!

- ألم تسمع ما قلتُ؟

- بلى طبعًا.

- ولماذا لا تقول شيئًا؟

- هل سمعته يتحدث عن واجب الحساب المنزلي الذي كان من الضروري أن ينهيه؟

- أجل.

- وهل تعلم ما ذلك الواجب الذي حال بينه وبين مرافقتي؟

وبدأت أنت تقول في هدوء:

- أرجو أن تعيريني سمعك يا أماه، دعيني أوضح الأمر لأبي.

- ليس هناك ما يدعو للإيضاح، هل حصل أو لم يحصل أني وجدتك مختليًا بصديقك الجديد الذي يشبه في منظره باعة الروبابكيا؟

- أنا؟

- هل كان ثمة موعد سابق بينكما؟

- سوف...

- وبعبارة أخرى: كنت تعلم أنه آت، ومن أجله هو...

ثم تحولت إليَّ...

- إن ما يبعث في نفسي الضيق والاشمئزاز هو افتقاره إلى الصدق

والصراحة، واعتياده التلاعب والكذب، وطريقته الخبيثة في إصراره على أن يفعل ما يريد، وأنت! أنت تجلس أمامه تعضده وتؤازره!

- إني لا أعضده ولا أؤازره!

- ولكنك لا تؤيدني أيضًا، ولا شك أنك مسرور لذلك!

* * *

لا، لا! وإذا شئت الصدق فأنا ألومكما معًا في قرارة نفسي، وخاصة والدتك؛ لأنها بالغة الرشد.

لقد تناست أو نسيت أيام أن كانت هي في مثل عمرك، لكني لم أنسه، وذلك هو الفارق بيننا! فقد أقسمت يمينًا لا أحنث فيه بيني وبين نفسي ألَّا أنسى، وقد بذلت جهدي حتى الآن في أن أحافظ على قسمي.

* * *

- إنه كذاب، مخادع، يروغ من بين أصابعك، كما تروغ السحالي، ومع ذلك أراك تبدو هادئًا ناعم البال، ترمقه في رضى واستحسان.

* * *

ووالدتك تخلط بين الموافقة أو الرضى، وبين الفهم أو الإدراك أو العفو..

وربما كانت هي أيام شبابها كذابة مخادعة، حتى لو كانت قد كفت الآن عن الكذب والخداع.. تمامًا كما كذبتُ أنا، وكما يكذب بعض الفتيان أيضًا، ويجدون أنفسهم مرغمين على الكذب؛ لأن الآباء يفرضون عليهم قائمة طويلة من المحرمات!

كثير مما تهفو إليه قلوبهم ممنوع منعًا باتًّا، وكلمة (لا) الناهية تبدأ كل جملة نوجهها إليهم.. ونحن المسؤولون عن انحرافهم وخداعهم لنا وكذبهم علينا.

ومع ذلك فالطفولة تمقت الخداع والكذب أكثر منا نحن الكبار، وهم يستاؤون في أعماقهم من إرغامنا لهم على الكذب، مدنسين طهارتهم التي خلقوا عليها، حتى لا نفسد عليهم متعهم البريئة!

وختامًا أقول لك في هدوء وحب وحنان:

«طابت ليلتك يا ولدي».

«تمت»